الفصل العاشر

إيران قوة كبرى

إلى أين تمضى إيران؟

سؤال حملته معى وحاولت أن أجد له إجابة خلال زيارة قصيرة لطهران عام ١٩٧٦. ولم يكن من السهل العثور على إجابات جاهزة أو معلبة لمثل هذا السؤال خاصة عند خبراء ومراقبى السياسة الإيرانيين.

وكبداية صدرت عن طهران خلال الأعوام الماضية إشارات، ربما صحت كعلامات على طريق البحث عن إجابة.

أهم هذه الإشارات اعلان الشاه أن دولته ستصبح دولة كبرى خلال ما تبقى من هذا القرن كما أعلن بصراحة أثناء زيارته لباكستان، بأن إيران ستسبب للولايات المتحدة متاعب كثيرة، إذا أصرت السلطات الأمريكية على حظر إرسال وبيع الأسلحة لإيران.

أى أن الشاه الذى كان زبونا جيدا لدى مصانع السلاح الأمريكية لم يقبل ما يتعارض مع أهدافه وهدف الوصول بإيران إلى مصاف الدول الكبرى، ومثل هذا الهدف لم يكن من الممكن التفكير فيه أو السعى للوصول إليه إلا بعد تدفق أموال البترول بهذه الكثرة.. وتفتحت شهية إيران وبدأت تسعى لتحقيق الكثير جدا وسريعا جدا.. ونجحت فى الارتفاع بمستوى الدخل القومى خلال عام ١٩٧٥ إلى ٥٤ بليون دولار بعد أن كان ٢٦ بليون دولار عام ١٩٧٣، كما ارتفع متوسط دخل الفرد فى العام من ٨٠٦ دولارات إلى ١٥٧٠ دولارا.

وأتاحت هذه الأموال لإيران امتلاك أحدث وأكبر ترسانة سلاح بالمنطقة. وقواتها الجوية يمكن أن توصف بأنها القوة البارزة فى المنطقة كما أنها تملك أقوى أسطول للهوفركرافت البحرية ليس فى المنطقة فقط بل فى العالم.. وهو ما يتناسب وطبيعة العمليات الحربية فى هذه المنطقة.. وبدأت إيران مشروعات صناعية طموحة للغاية ولديها صناعة سلاح كبيرة والمتوقع أن تتطور بسرعة خلال الأعوام القليلة القادمة.. ومصانع السلاح تنتشر فى أنحاء إيران وتنتج الكثير من الأسلحة بالتعاون مع الخبرة الأجنبية ليس ذلك فقط، فقد دخلت

إيـران ميـدان الذرة وحصلت على مفاعـلات ذرية من كل من الاتحاد السـوفيتى والدول الغربية وأذيع أن مجموع ما ستحصل عليه إيران من المفاعلات يتجاوز عشرين مفاعلا.

وبعد أن انتصرت الهند على باكستان عام ١٩٧١. وتكونت دولة بنجلاديش فى القطاع الشـرقى لباكسـتان. قامت الهند بتفجير قنبلتها الذرية عام ١٩٧٤ وكان هذا إيذانا بنشاط إيرانى مكثف وواسع فى هذا المجال.

والأكثر أهمية هنا هو إعادة تخطيط الأهداف السياسية العليا لإيران وإعادة ترتيب أوراق السياسة الخارجية.

وحاولت إيران دعم حليفتها باكستان. ودعمت تعاونها مع الصين مقابل توطد العلاقات الهنديـة السـوفيتية وحاولت الاحتفاظ بالحـد المعقول من العلاقات مـع الهند والاتحاد السـوفيتى الجار الخطر. فكل من الاتحاد السـوفيتى والعراق يسبب المتاعب لإيران سواء بمسـاندة الجماعات التخريبية أو الانفصاليـة وتعتمد إيران على قوى أمن ضخمة لمواجهة هذا الخطر وفى نفس الوقت تعمل على تأمين هذا الصراع بالعلاقات الاقتصادية مع الاتحاد السوفيتى وعقد صفقات معه لتصديره الغاز الطبيعى مقابل جرارات زراعية أو السعى لبناء جسور مع العراق..

وترسـانة إيران من السلاح الحالية ستتضخم جدا عندما تتسلم الصفقات التى تعاقدت عليهـا فعلا.. وسـتصبح أكبر لو اتيحت الفرصـة أمامها لتحقيـق كل أهدافها فى ميدان التسليح أو صناعة السلاح..

وعندمـا تمتلك دولة قوات مسـلحة بهذا الحجم فمن الطبيعى أن تثير عدة تسـاؤلات حول.. ضد من سوف يستخدم هذا السلاح؟

وإذا لم تبحـث الدولـة عن مجـال تتنفس فيه هذه القوة فمن الطبيعـى أن تتوقع أنها سـتتنفس داخليا.. فهل يريد الشاه الذى يتمتع بقدر كبير من الذكاء من قواته المسلحة أن تسلك هذا الطريق ؟ من المؤكد لا..

أى أن ميدان التنفس لهذه القوة سيكون خارجيا.. فهل هذا ما قصده الشاه عندما أعلن أن دولته ستصبح دولة كبرى؟

نمـو هائل.. قوة صناعية.. قوة عسـكرية..بعد أن يكتمل كل هـذا. فلابد من مجال حيوى مثل هذا المجال لا يكون متاحا إلا فى الخليج والمحيط الهندى والدول المجاورة..

ولما كانت مثل هذه السياسة ستصطدم بسياسات ومصالح أخرى. وذلك واقع آخر يدعم تطلع إيران للانضمام إلى النادى الذرى..

وأيضا فالهند بانتصارها وقنبلتها الذرية تثير طموح وأطماع الآخرين وحقوقهم أيضا للحاق بها حتى لا تنفرد بدور قد يتعارض أو يتناقض مع أهداف ومصالح آخرين..

وإذا كانت الصين بعضويتها للنادى الذرى تسعى للقيام بدور أكبر قوة آسيوية دون منازع فذلك على الأقل يحول بين الهند والحركة شرقا ويصبح مجال الحركة أمامها فى اتجاه الغرب، ولن يمنعها من الحركة بحرية سوى انضمام باكستان أو إيران إلى النادى الذرى..

ووفقا للصورة خلال عقد السبعينيات من القرن الماضى كانت إيران بإمكانياتها أقرب من باكستان إلى عضوية هذا النادى. كما أنها بطموحها لاحتلال مكانة الدولة الكبرى كانت أقرب كثيرا وإن كانت باكستان تتحرك فى نفس الاتجاه بعد حصولها على مفاعل ذرى من فرنسا وعلى دعم كبير من كل من الصين والولايات المتحدة.

وعضوية إيران فى النادى الذرى ستدعم حركتها للبحث عن مجال حيوى..

ومحور باكستان- إيران الصينى سيكون معادلا لمحور الهند- الاتحاد السوفيتى فى هذه المنطقة من العالم.. ومثل هذه السياسة- البحث عن مجال حيوى- ستتعارض أو تتناقض مع أهداف ومصالح دول أخرى.. حتى ولو انضمت إيران إلى النادى الذرى فإنه لن يؤدى إلى الحد من هذه التناقضات. ولما كانت إيران تتطلع إلى المنطقة المحيطة بها خاصة العراق ودول الخليج كمجال حيوى ومنطقة نفوذ فإن الأمر بالنسبة للشاه يبدو فى متناول اليد. وهناك قاعدة تقول إن معارك التخوم تحسم لصالح الطرف الأقوى.

وإذا نظرنا إلى خريطة جيران إيران سنتبين أنها الطرف الأقوى والأطراف أو الدول الموجودة غربا ليست الأضعف فقط بل والأقصر نظرة أيضا.. تتحرك باتجاه هدف واضح وإرادة واحدة أما هؤلاء الجيران فإن أهدافهم ليست واحدة.. أما الإرادات فكثيرة وعلى امتداد حدود إيران الغربية أقيمت عدة قواعد بحرية وهذا مؤشر لاتجاه الحركة حاضرا ومستقبلا وأهم هذه القواعد. عبدان خارك بوشهر كبش بندر عباس جاسك شاه باهار بالإضافة إلى القواعد التى أقامتها بجزيرتى أبو دوسى وهورس.

أما الولايات المتحدة التى تربطها بإيران علاقات وثيقة فقد بدأت تتململ من طموح الشاه والسؤال إلى أى درجة وصل هذا التململ؟ وخلال الظروف التى كانت تمر بها إيران بسبب انخفاض دخلها من البترول بضعة آلاف مليون دولار نتيجة لتخفيض سعر البترول

وعدم وجود مشترين للبترول الإيرانى. وبكل الآثار التى ترتبت على ذلك من نقص معدلات التنمية وتوقف بعض المشاريع وعدم وجود ما يكفى لتمويل أعداد أخرى من المشروعات كان مخططا البدء فى تنفيذها فإنه يبدو أن مهندسى السياسة أمامهم وقت لحساب خطوتهم القادمة.. ويدرك الأمريكيون طبيعة المشاكل التى تعانى منها إيران.. ليس منها العتب على الدول البترولية العربية بسبب تخفيض سعر البترول ومن هذه المشاكل نشاط الجماعات التخريبية والدعم الخارجى التى تحصل عليه واستغلال هذه الجماعات للظروف التى يمر بها المجتمع الإيرانى من هوة واسعة بين الطبقات الواسعة الثراء والطبقات المعدمة والفساد المستشرى على كل المستويات وارتفاع الأسعار إلى الحد الذى أدى بالشاه إلى التدخل لتخفيضها واعتقال آلاف من التجار لوضع قراره موضع التنفيذ.

وتعانى إيران أيضا من نقص الكوادر الفنية خاصة فى القوات المسلحة، وكمثال فإن النقص فى أعداد الطيارين أدى إلى أن يصبح لكل طيار إيرانى خمس طائرات.. والقطع البحرية خاصة المدمرات التى تعاقدت للحصول عليها من الولايات المتحدة سيتأخر تسليمها بسبب نقص الأفراد المدربين.. وكانت إيران ترسل بطلبتها إلى الكليات الجوية والبحرية فى الولايات المتحدة لعدم وجود كليات جوية أو بحرية فى إيران.. أى أن أمام إيران فترة من الزمن ليكتمل لها بناء قوة مسلحة متكاملة العناصر.. وهناك مشاكل أخرى منها التكدس فقد تحولت الموانئ الإيرانية من عبدان حتى بندر عباس إلى أعناق زجاجات بدلا من أن تعمل كبوابات، وتبقى السفينة فى المتوسط ١٥٠ يوما قبل أن تتمكن من تفريغ حمولتها. وكلف ذلك إيران حوالى بليون دولار كغرامات تأخير خلال عام ١٩٧٥، وليس خافيا عن السلطة الإيرانية طبيعة المشاكل التى تواجهها.. وأسبابها.. نعم تسعى إيران للتخلص من المشاكل التى تعانيها ولكن متى يتحقق لها ذلك؟ وخلال هذا السباق بين المشاكل خاصة الاجتماعية والسياسية وبين السلطة فى إيران وخلال السعى لتحقيق هدف إيران فى أن تصبح دولة كبرى فإن الولايات المتحدة تراقب جيدا.. وانتهت المراقبة بتشجيع ثورة الملالى واخراج الشاه، وبدء مرحلة جديدة فى تاريخ إيران

كأس السم

عندما ظهر آية الله الخمينى، حاكم إيران، على شاشات التليفزيون ليعلن أنه قد تجرع «كأس السم». لم يعن بالطبع، المعنى الحرفى فالخمينى لم يكن سقراط كان رجلا طموحا وصل إلى السلطة عبر أوسع أحلامه، وكان، وهذا هو الأكثر أهمية مستعدا لفعل كل

ما يتطلبه التشبث بسلطته، و«كأس سمه» كان مجاز لقبوله قرار الأمم المتحدة الداعى إلى وقف إطلاق النار فى حرب الثمانى سنوات بين إيران والعراق.

وكان الخمينى خلال فترة امتدت أكثر من عام قد رفض بتصميم ذلك القرار باعتباره جزءا من مؤامرة شريرة ضد الثورة الإيرانية فقد كان ما يزال يحلم بأن الشباب الصغار «متطوعى الشهادة» ممن كانوا فى الواقع يرغمون على الالتحاق بالحرب ولم يكونوا على الإطلاق متطوعين سوف يواصلون السير إلى بغداد فى طريقهم إلى كربلاء والنجف، المدن المقدسة عند الشيعة الاثنى عشرية. وبعد أيام قلائل من اتخاذ مجلس الأمن ذلك القرار كان الخمينى يغدق تعابير الازدراء قائلا: هذه وثيقة مخزية سنفضل الموت على الخضوع لذلها وتعابيرها الجائرة.

ولكن هذا الكلام برهن. مرة أخرى على أنها لغة طنانة ساخنة. فلم يكن الخمينى يمتلك نية الموت، سواء جسديا أو سياسيا. وخلال حرب الثمانى سنوات لم يكن هناك، أكثر من أحد عشر ملا بين المليون الذين ماتوا. إن فن الملا هو أن يجعل الآخرين يموتون فى سبيله لا أن يموت هو فى سبيلهم.

وفى الوقت الذى أعلن فيه الخمينى قبوله لوقف إطلاق النار كان كل امرئ يعرف أن إيران قد وافقت على وقف إطلاق النار لأنها لم تستطع الاستمرار فى الحرب.

وقضى الخمينى السنة التالية وهو يحاول تبرير قراره بقبول وقف إطلاق النار. ولم يوضح بالطبع. الأسباب التى منعته من القيام بذلك فى وقت أبكر، وقد سقط خلال السنة الإضافية من القتال أرواح مالا يقل عن ١٠٠ ألف شخص وسببت دمارا أكبر فى إيران والعراق. ومع ذلك فحين جرى القبول بوقف إطلاق النار، كانت بعض أجزاء من الأراضى الإيرانية ما تزال باقية تحت الاحتلال العراقى، ولم يكن جنود آية الله فى مكان ما قرب كربلاء والنجف.

ومع ذلك فعندما حلت الذكرى الأولى لقبول وقف إطلاق النار. كانت النغمة قد تغيرت ففى هذه المرة كان آية الله يعزف على نغمة مختلفة. فقد كان يحاول البرهنة على أن القبول بوقف إطلاق النار كان أهون الشرور، وكانت الفكرة الأساسية لهذه الرسالة أنه بالرغم من عدم احراز النصر. فإن الثورة قد تفادت على الأقل. الهزيمة.

وقبيل حلول الذكرى الثانية لـ «كأس السم» كان الخمينى قد مات فى عمر متقدم بلغ ٨٨ عاما. وحاول ورثته بالطبع الادعاء بأنه مات كمدا بعدما انسحق قلبه أسى بسبب

قبوله وقف إطلاق النار. ولكن محاولة تسويق هذا الكلام لم تنجح فقد مات فى الواقع جراء سرطان البروستاتا وعجز القلب.

وكان آيــة الله قــد هــذب لفترة طويلة صورتــه الخاصة باعتباره زعيما قوى الشــكيمة لا يتزحزح حتى لو مات الملايين ضمانا لاســتمرار بقائه فى الســلطة. ووفقا لأحد أصدقائه المقربــين، وهو آيــة الله صادق خلخالى، فإن الخمينى كان قد صادق شــخصيا على إعدام أكثر من خمســة آلاف من خصومه خلال فترة الأشهر الثلاثة الأولى من حكمه. وغالبا بعد محاكمــات صورية اســتغرقت بضع دقائق ولم يظهر الخمينى. أيضا، أى شــئ من الندم عندمــا أخــبر أن آلافا من الصبيان الإيرانيين. ممن تراوحت أعمارهم بين ١٢ و ١٨ عاما، قد ماتوا بعد أن أرغموا على اجتياز حقول الألغام من جانب قادة الحرس الثورى فى جبهة الحرب فقد علق على ذلك قائلا: «كلهم سيذهبون إلى الجنة».

إيران.. والقنبلة

(١)

هل القنبلة النووية الإيرانية هى سبب الصدام مع الولايات المتحدة، أم هى مجرد محور من محاور الصراع والصدام؟

لقد قاد آية الله الخمينى ثورة عمادها رجال الدين الشيعة فى إيران المنتمين إلى المذهب الجعفرى الاثنى عشــرى وتمكن من اعتلاء قمة السلطة عام ١٩٧٩ بمساندة من الأمريكيين ودعم من الفرنسيين.

وبما أن للرجل مدرســة سياســية ورؤية خاصة تتمثل فى ولاية الفقيه، فقد وفرت له قيادته للثورة الظروف الملائمة لتغيير الدستور وإعداد دستور جديد ينص على ولاية الفقيه فى مواجهة معارضة من داخل الحوزات العلمية الشيعية.

وعندما اختار الصدام مع المؤسســة الفقهية الشــيعية التقليدية. كان يعلم إنه قد حرك الركود. وأيقظ العقول وألهب العواطف. وفتح الباب أمام الجموح المذهبى وطموح المتشددين المؤمنين به وبرؤيته الدينية والسياسية والآن وبعد مرور عدة عقود على الثورة، يمكن القول إن الزلــزال الفكــرى الذى أثاره الخمينى مازال يلقى بحممه فى عالم الفقه الشــيعى حتى وإن تعاظمــت القوى التــى تعارضه من داخل القيادات الدينية ولن نتحدث عن المعترضين من خارج دائرة الشيعة الاثنى عشرية. المهم أن ثورة الخمينى وولاية الفقيه، أعادت الربط بين الدين والدولة.

وبقوة وشراسة وإصرار، أعادت ثورة الملالى تشكيل حياة الإيرانيين وفرضت عليهم من القيود ما يتفق ورؤيتها ووجهات نظرها. وسنت من القوانين وأصدرت من الأوامر وأنشأت من المؤسسات ما يضمن أن تمضى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفقا لما انتهى إليه اجتهادهم.

وكان منطقيا أن تدور الدوائر على أصحاب الآراء التى تتعارض مع رأى الخمينى حتى ولو كانوا من أصحاب الحوزات العلمية والتاريخ الفقهى والقامات العلمية والسياسية الرفيعة.

وفى ظل دستور ولاية الفقيه، أصبح من يجلس على مقعد المرشد هو صاحب الأمر والنهى باعتباره نائبا عن الإمام. أما المؤسسات السياسية الأخرى فهى فى النهاية فاقدة للسلطة الحقيقية مقارنة بسلطة المرشد ونفوذه.

والحديث عن الديمقراطية فى إيران. ليس أكثر من حديث عن شكل ومؤسسات كرتونية. فالمرشحون يجرى فرزهم أولا قبل قبولهم كمرشحين. وهناك قوى تم حرمانها تماما من الاشتراك فى عمليات التصويت، وما يقرره البرلمان لا يساوى شيئا أمام حق المرشد فى الاعتراض.

ولا يختلف الأمر بالنسبة لرئيس ومجلس الوزراء وحتى خاتمى الذى اختاره الناخبون لمنصب رئيس الجمهورية لمرتين متتاليتين وبأغلبية معبرة وكاشفة عن الرغبة العميقة والقوية فى التغيير والإصلاح وقف عاجزا أمام رفض المتشددين لسياساته الإصلاحية.

وتمسك الملالى خاصة المتشددين ورثة الإمام الخمينى والمحافظين بمدرسته وتراثه وبمقاليد الأمور فى إيران، أصبح هدفا لا يمكن التخلى عنه، والسلطة وحدها ليست الهدف، بل الحفاظ على النهج والسياسات والعلاقات الداخلية والخارجية باعتبارها الأنسب لإيران الثورة.

وهؤلاء الملالى على اقتناع بأن ثورتهم ونهجهم قدم للعالم طريقا ثالثا يختلف عن الطريقين الشيوعى والرأسمالى. ويعملون بقوة لنيل اعتراف العالم خاصة الولايات المتحدة به ولكن الولايات المتحدة لم ترفض الاعتراف بهذا الطريق فقط بل طالبت بإصلاح سياسى. هذه المطالبة لا معنى لها سوى تخلى الثورة الإيرانية عن نهجهم وسياساتها وادارة الظهر لولاية الفقيه أو على الأقل إعادة النظر فى سلطات المرشد.

والإصلاح السياسى وفقا للرؤية الأمريكة يعنى الديمقراطية وحرية الكلمة والمعتقد والمساواة بين المواطنين والشفافية واحترام حقوق الانسان والتعددية الحزبية، وتغييرا رئيسيا فى السياسات المتشددة ومن بينها دعم الإرهاب والارهابيين.

ومثل هذا الإصلاح بما يعنيه، يرفضه ورثة ثورة الخمينى ومن آلت السلطة لهم بعد ٢٦ عاما من نجاح الثورة ويبدون استعدادا للصدام والمواجهة أيا كانت نتائجها لأن ما هو مطلوب منهم هو إنهاء الثورة والآمال التى أطلقتها والمتغيرات التى أحدثتها.

وهؤلاء الذين وهبوا الثورة حياتهم وقاتلوا القوى السياسية فى الداخل وقهروها وتورطوا فى مواجهة حرب التدخل ضد الثورة التى أطلقها من عقالها النظام العراقى السابق؛ وتحملوا خسائر بشرية جاوزت المليونى قتيل وضعف هذا العدد من الجرحى بالإضافة إلى الخسائر المالية والاقتصادية. لا يمكن تصور أن يقبلوا بالخروج من المسرح والتخلى عن كل شئ.

إنهم يشعرون بالعزلة، ويدركون أن الضغوط ستتصاعد، وعلى بينة من أنهم يعزفون نغمة أخرى غير النغمة التى يعزفها العالم بعد انهيار الاتحاد السوفييتى فالكل يتفاعل بصورة أو بأخرى مع رياح التغيير التى هبت على العالم، وهم يرون أن الأمر لا يعنيهم، فطريقهم الثالث هو الصواب الذى لا يرون صوابا غيره.

أما الولايات المتحدة بصفة خاصة ودول الغرب بصفة عامة فيرون أن إيران عقبة رئيسية تعترض طريق الإصلاح السياسى.

هذه هى القضية الرئيسية التى يدور حولها الصدام بين أمريكا وإيران وما القنبلة النووية إلا أحد المحاور الرئيسية للصراع.

فإيران كثفت جهودها من أجل إنتاج هذه القنبلة لتتمكن من مواجهة رياح التغيير التى هبت وتهب على العالم وضغوط الولايات المتحدة فى حين تبذل الولايات المتحدة جهودها لمنع إيران من امتلاك القنبلة، حتى يظل الباب مفتوحا للتصاعد بالضغوط بما فى ذلك الضغوط العسكرية لإرغام الزعماء الإيرانيين للانضمام إلى قافلة الإصلاح السياسى، بكل ما يعنيه ذلك من تغيير فى المنهج والسياسات والتطلعات والطموحات والسلطة.

(٢)

تتعرض إيران لموجات متصلة من الضغوط الأمريكية القوية لوقف برامجها النووية وإغلاق ملف طموحاتها وتطلعاتها ومخططاتها للانضمام لنادى الدول الذرية.

وفـى مواجهة هذه الضغوط، لجـأت إيران إلى المناورة وخططت للاسـتفادة إلى أقصى مـدى مـن الجهود الأوروبية التـى ترفض مبدأ اسـتخدام القوة وتفضـل التوصل إلى حل عـبر التفاوض. وتتعدد أسـاليب المناورات من التهدئة والمهادنـة والإعلان عن التعاون مع المنظمة الدولية وقبول التفتيش على منشـآتها وإنكار فكرة السعى لامتلاك أسلحة نووية إلى التحدى والإعلان عن الإصرار على امتلاك قدرات نووية وانها ستسعى لتخصيب اليورانيوم باسـتخدام مفاعـلات تعمل بالماء الثقيل وأن هذا حق لهـا لا يمكن لأى طرف أن يحرمها منه إلى أن أعلنت عن قدرتها على الرد بقوة على من سيلجأ لاستخدام القوة العسكرية ضد منشآتها النووية.

والمواجهة الأمريكية- الإيرانية لها عدة أبعاد، فالإدارة الأمريكية سـبق أن أعلنت إن إيران دولة من دول محور الشـر. وبين الحين والآخر يعلن مسـئول أمريكى أن إيران دولة إرهابية وترعى الإرهاب، وهناك من أضاف إلى ذلك تحميل نظام الحكم فى طهران مسئولية دعـم العمليات الإرهابيـة خاصة فى العراق، وفتح الأبواب أمـام الجماعات المتوجهة إلى مسرح العلميات العراقى.

إلى جانب ذلك هناك الاتهامات بانتهاك حقوق الإنسـان وحرمان المواطن الإيرانى من حقوقه السياسية وعدم الاستجابة للمطالبة بالديمقراطية والتعددية الحزبية.

وطوال فترات المواجهة التى طالت سـعت إيران لبنـاء تحالفات إقليمية للتخفيف من عزلتها ولدعم ترسانتها الحربية ومواصلة العمل فى برنامجها النووى.

ومن أسـباب الحرص على المضى قدما فى هذا البرنامج إدراك إيران أن امتلاك سـلاح نووى سـيوفر لها قـدرة على الردع تحول بـين الولايات المتحدة ومواصلـة الضغط عليها والتلويح باسـتخدام القوة العسـكرية، كما أن امتلاك السـلاح النووى سيجعل المفاوضات والعمل الدبلوماسى الطريق الوحيد للتوصل إلى تفاهم أو حلول وسط للقضايا المختلفة.

هذه الحقيقة البسـيطة الواضحة تدركها إيران كمـا تدركها الولايات المتحدة، لذا فإن السـباق بين طرفين الأول يسـعى لامتلاك سـلاح نووى ليحمى حاضره ومسـتقبله وثورته وأوضاعه وطموحاته الإقليمية التى يرى أنها مشـروعة ومستحقة والثانى لا يقبل بمثل هذا الوضع وعمل وسيعمل من أجل منع إيران من امتلاك سلاح نووى أو حتى قدرات نووية، ومن المؤكد أن إسرائيل ودول المجموعة الأوروبية ومعظم الدول الآسيوية والعربية لا ترحب إن لم تكن ترفض أن تتحول إيران إلى دولة ذرية.

فالكل يدرك أن حالة من الفوضى ستسود منطقة الشرق الأوسط، وسيشتعل سباق تسلح نووى لا فى المنطقة فقط بل وعلى مستوى العالم وسيصعب التحكم فى مثل هذا السباق. ومثل هذه الفوضى. وهذا السباق. تقبل به إيران. بل وترحب به، والأهم أنها ترى أنها فى مثل هذا المناخ قادرة ومؤهلة للتحول إلى قوة إقليمية عظمى يمتد مجالها الحيوى من المحيط الهندى جنوبا إلى روسيا شمالا ومن الهند وباكستان شرقا إلى البحر المتوسط غربا.

ومثل هذا الهدف سبق أن فشل الشاه محمد رضا بهلوى فى تحقيقه. كما عجز صدام حسين عن بلوغه.

الشاه مهدت له الولايات المتحدة الطريق؛ طالما كان يدعم الاقتصاد الأمريكى باستيراد احتياجاته العسكرية بما فيها الذرية ولكن عندما اقترب كثيرا من هذا الهدف عملت بقوة على التخلص منه.

وليس ثمة شك فى أن ثورة الملالى الإيرانية ما كان يمكن أن تحقق نجاحها إلا بفضل الدعم والمساندة الأمريكية بصفة رئيسية ثم الدعم الفرنسى. وحتى ساعات الشاه الأخيرة فى إيران كان فى إمكانه سحق ثورة الخمينى، فقد كان يملك القوة والقدرة والإمكانات والقوات المؤهلة لإنجاز هذه المهمة ولكن أمريكا حالت بينه وبين اتخاذ مثل هذا القرار وأرسلت إليه الجنرال هويزر ليطلب منه مغادرة إيران. وهاهم الملالى يواصلون نفس مسيرة الشاه ويعملون من أجل أن تصبح إيران قوة إقليمية عظمى دون أن يستفيدوا من الدرس، وتحول إيران إلى قوة نووية سيؤدى إلى اختلال التوازن فى منطقة الخليج وكل شبه الجزيرة العربية وفى الشرق العربى ككل، وسيمتد النفوذ الإيرانى هنا وهناك من جراء عدم التوازن فى القوى، وسيؤثر ذلك على أوزان وأحجام قوى مؤثرة بالمنطقة كما أن مصالح هذه القوى ستتعرض لأضرار كبيرة.

ومثل هذا الوضع سيفتح الباب لسباق نووى فى منطقة الشرق الأوسط ولن تملك الولايات المتحدة القدرة على لجم مثل هذا السباق وستعجز عن الحيلولة دون حدوثه، بعد أن أصبح امتلاك القنبلة هو الطريق إلى التوازن والحفاظ على المصالح الوطنية. ولو نشب مثل هذا السباق فسيتأثر النمو الاقتصادى بالمنطقة وستصاب خطط وبرامج التنمية بالشلل فى الدول التى ستقرر خوض هذا السباق.

وليس ببعيد أن امتلاك الصين الشيوعية لقنبلة نووية وما ترتب عليه من اختلال للتوازن فى منطقة شرق وسط آسيا أدى إلى سعى الهند لامتلاك قنبلتها لاستعادة التوازن مع الصين

كما كانت باكستان ماثلة كعدو أمام القيادات الهندية. نعم كانت هناك حسابات هندية أخرى ولكن كانت الصين هى الدافع الرئيسى، وما أن امتلكت الهند قنبلتها حتى أسرعت باكستان للحصول على عضوية النادى الذرى بالرغم من كل المحاذير. ولم يكن هناك فى باكستان من يقبل بتفوق الهند نوويا، أو بأن يميل ميزان القوى لصالح خصمهم أو عدوهم التقليدى.

وبالرغم من الثمن الفادح اقتصاديا وسياسيا تمكنت باكستان من الحصول على عضوية النادى الذرى.

وبصلابة واجهت العقوبات الأمريكية والدولية. وكانت باكستان محظوظة فسرعان ما انفتحت أبواب الجحيم بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ولأن الولايات المتحدة كانت فى حاجة إلى باكستان لخوض حربها ضد نظام طالبان فى أفغانستان وتنظيم القاعدة فقد بدأت صفحة جديدة معها. وأفلت النظام الباكستانى بقنبلته النووية.

والآن تقف إيران على حافة هشة وتمضى على أرض مفروشة بالألغام ولكنها تدرك أن حماية الثورة الإيرانية وأهدافها وتطلعاتها وطموحاتها وحماية نظام سياسى متشدد لا يحظى بقبول شعبى أو إقليمى أو دولى لن يتحقق بشكل حاسم إلا بامتلاك قنبلة نووية.

وبما أن النظام السياسى قد اثبت براعة فى المناورة طوال الفترة الماضية، وامتلك كثيرا من الوقت للمضى قدما فى برنامجه النووى، فإنه يمكنه الوصول إلى هدفه إذا لم تخذله القوى التى تسانده، خاصة روسيا. وإذا ما امتلك الوقت للمطلوب.

(٣)

تشعر الولايات المتحدة وغيرها من الدول وخاصة الدول الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى واليابان وكندا واستراليا بالقلق مما تحرزه إيران من تقدم فى قدرتها على تخصيب اليورانيوم وفصل البلوتونيوم، وهما العمليتان اللتان يمكنهما إنتاج إما الوقود لمفاعلات محطات الطاقة المدنية أو للقنابل النووية. وطبقا لشروط معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية التى صدقت عليها إيران فى عام ١٩٧٠، يحق للإيرانيين صنع تلك التكنولوجيات للأغراض المدنية. ولكن الطريقة السرية التى أجروا بها ذلك أثارت الشك فى اعتزامهم إنتاج القنابل، إلى جانب الطاقة للاستخدام السلمى. وكجزء من التزام إيران بمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، وقعت على اتفاقية الضمانات. مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية، مما يسمح لموظفى الوكالة بمراقبة انشطتها بانتظام.

واعتبارا من صيف ٢٠٠٢، وفى ضوء الشكوك التى طال أمدها حول الأنشطة النووية التى ظلت مخفية عن أعين المفتشين، وضعت الوكالة البرنامج الإيرانى تحت المراقبة الدقيقة، وأثبتت المراقبة منذ ذلك الوقت انتهاك إيران لاتفاقية الضمانات التى كان المقصود بها جعل أنشطتها النووية تتسم بالشفافية ومقصورة على الأغراض السلمية. وتشمل هذه الانتهاكات عدم إبلاغ إيران عن شراء وصنع مواد نووية وعدم الإعلان عن وجود العديد من مواقعها النووية.

واسترشادا بسلوك الحكومة الإيرانية فيما مضى يتوقع البعض المزيد من الانتهاكات، فهم مقتنعون بأنها تكذب بإصرارها على أن برنامجها النووى مقصور على الأغراض المدنية، كما يعتقدون أنها تعتزم امتلاك القدرة على صنع القنبلة النووية سرا.

وقد شكلت الترويكا الأوروبية والإيرانيون ثلاث مجموعات عمل لمناقشة التعاون التكنولوجى والنووى والأمنى. وفى مقابل منح إيران مزايا تجارية وغيرها من المزايا. يريدون من إيران تعليق أنشطة دورة الوقود ويطالبونها بالحصول على الوقود اللازم للمفاعلات المدنية من الخارج، مع أنهم قد لا يصرون على الإعلان العلنى عما يفيد ذلك ولإدراكهم أن الحصول على البلوتونيوم من الصنف اللازم لصنع الأسلحة من مفاعل الماء الثقيل أسهل من مفاعل الماء الخفيف، فسوف يعرضون أن يبيعوا لإيران مفاعل ماء خفيف إن هى تخلت عن برنامجها الحالى الخاص بمفاعل الماء الثقيل، وسوف يعرضون على إيران إمدادات مستمرة من الوقود النووى المناسب لمفاعل الماء الخفيف،على أن تعاد إلى الدول التى توردها بعض استخدامها، شريطة أن تتخلى إيران عن خططها لتخصيب اليورانيوم وتلتزم بإنتاج الطاقة النووية للاستخدام السلمى. كنوع من الحوافز يعرض الأوروبيون دعم طلب إيران إلى منظمة التجارة العالمية الذى لم يبت فيه حول عقد اتفاقية للتجارة والتعاون، وسوف يؤكد الاتحاد الأوروبى فرضيته الحالية التى تقول إن الجماعة الإيرانية المعارضة مجاهدى خلق المتمركزة فى العراق منظمة إرهابية خطيرة وسوف يفعل الإيرانيون الشئ نفسه فيما يتعلق بالقاعدة.

وقد أيدت أوروبا منذ فترة طويلة طلب انضمام إيران إلى منطقة التجارة العالمية إلا أن الولايات المتحدة كانت تستخدم حق النقض ضده باستمرار.

وأعلن الاتحاد الأوروبى ككل إلى جانب بعض الدول الأوروبية منفردة، أن مجاهدى خلق المنظمة المسلمة اليسارية المعادية لإيران التى كانت تتمتع بشعبية فيما مضى، منظمة

إرهابية، ويسعى الإيرانيون إلى ترحيل أعضاء مجاهدى خلق الذين تحتجزهم القوات الأمريكية حاليا فى معسكر شرقى العراق. وفى عام ٢٠٠٣ رفضت الولايات المتحدة طلبا بمبادلة بعض أعضاء مجاهدى خلق ببعض المشتبه فى انتمائهم إلى القاعدة ممن تحتجزهم السلطات الإيرانية. ولايبدو أن الموقف الأمريكى تغير منذ ذلك الوقت.

وقد يكون الحافز الأكثر إغراء من بين كل الحوافز الأوروبية هو عرض مفاعل المياه الخفيفة ولدى إيران مفاعل كهذا فى ميناء بوشهر على الخليج وتود إيران الحصول على آخر غير أن الدول الأخرى مترددة فى إثارة غضب الولايات المتحدة بتوريده إلا أنه ليس من المؤكد أن الإيرانيين على استعداد للتخلى عن برنامجهم الخاص بمفاعل الماء الخفيف الذى سوف يحدث انتعاشا فى برامج الطاقة المدنية لديها.

الأمر الواضح هو أن الولايات المتحدة وليس أوروبا هى التى يمكنها تقديم الحوافز الأكثر جاذبية لإيران، فالأمريكان لديهم «مجاهدى خلق» تحت رعايتهم ويمكنهم أن يوافقوا على دخول إيران منظمة التجارة العالمية، وكان للعقوبات الأمريكية التى فرضت على التجارة مع إيران أثر مدمر على الاقتصاد الإيرانى. ويود الإيرانيون وقف العمل بهذه السياسية وأهم شئ هو أن الأوروبيين لا يمكنهم أن يقدموا لإيران الضمانات الأمنية التى يسعون إليها، بينما يمكن للأمريكيين أن يقدموها لهم[1].

ويرى الإيرانيون أن تكتيكاتهم رادعة لإسرائيل خصمهم الإقليمى المسلح تسليحا نوويا وللولايات المتحدة القوة العظمى المعادية التى غزت اثنتين من الدول المجاورة لها ولا يبدو أن الإيرانيين قد تخلوا عن طموحاتهم فى الحصول على دورة الوقود، واذا كان لابد من تغيير القيادات الإيرانية لسياساتها تغييرا حاسما والتوقف عن سعيها للحصول على دورة الوقود فلابد أن تكون مقتنعة بأن أمنها، ومستقبل الجمهورية الإسلامية، سوف يحظى بقدر أكبر من الحماية نتيجة لذلك.

وقد نشرت الصحف أن الولايات المتحدة تقوم بمهام استطلاعية داخل إيران بهدف تحديد أماكن العشرات من المواقع النووية التى يمكن تدميرها بضربات شديدة الدقة وغارات فدائية قصيرة المدى.

وقد نفى البنتاجون ذلك وبالمثل بدا المسئولون الإيرانيون غير مكترثين فمهما كانت الحقائق فهم لن يعترفوا بوقوع انتهاك لحدودهم.

---

(١) كريستوفر دى بيليج - مجلة وجهات نظر - مارس ٢٠٠٥.

وكان الرئيس بيل كلينتون قد حاول فى ولايته الأولى عزل إيران بفرض عقوبات عليها لمنعها من شراء التكنولوجيا النووية وهو ما لم يحقق إلا نجاحا جزئيا وفى عام ١٩٩١، كادت الحرب تنشب بين البلدين بعد قصف المجمع السكنى العسكرى الأمريكى فى السعودية على أيدى عملاء كان يعتقد أن إيران تساندهم وبعد فترة قصيرة من الهجوم وافق الكونجرس على قانون العقوبات الإيرانية الليبية الذى منح الرئيس سلطة فرض عقوبات على شركات فى العالم الثالث لها استثمارات فى قطاع الطاقة الإيرانى. وفى العام التالى بدا أن انتخاب الرئيس الإيرانى الإصلاحى محمد خاتمى يشير إلى إمكانية وجود جمهورية إسلامية جديدة معتدلة نسبيا وأقل عنفا فى معارضتها للمصالح الأمريكية. وأمضى كلينتون ما تبقى من ولايته فى تعديل سياسته لمصلحة إيران. وقد شجع كلينون اتصالات الأشخاص بالأشخاص وخفف بعض العقوبات الثنائية ضد التجارة وأعلن انه لن يلجأ إلى قانون العقوبات الإيرانية الليبية التى أقر فى عام ١٩٩١، كما سمح لمادلين أولبرايت بالاعتذار عن تاريخ أمريكا الخاص بالتدخل فى السياسة الإيرانية الداخلية.

كان المقصود بتنازلات كلينتون إقناع خاتمى بتقديم مقترحات خاصة به ولكن الرئيس الإيرانى خسر الصراع على النفوذ مع المؤسسة المحافظة التى شعرت بتهديد من محاولاته تعزيز الديمقراطية ونبرته الأكثر هدوءا تجاه الولايات المتحدة. وفى نهاية فترة رئاسة كلينتون كان من الواضح أن الكلمة العليا فى إيران للمتشددين ومع ذلك ساهمت إيران بحماس فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ فى جهود جورج بوش لهزيمة جارتها الشرقية الكريهة حكومة طالبان وبدأ مسئولون بالخارجية الأمريكية فى الحديث إلى الإيرانيين بشأن اتباع سياسة وفاق أوسع نطاقا ولكن الإسرائيليين اعترضوا فى بداية ٢٠٠٢ سفينة تحمل أسلحة كان هناك اعتقاد كبير بأنه قد جئ بها من إيران وأنها فى طريقها إلى السلطة الفلسطينية وهو ما زعموا أنه انتهاك للاتفاقيات التى بين الفلسطينيين وإسرائيل وتغير الوضع.

بعد بضعة أسابيع وضع بوش إيران ضمن محور الشر إلى جانب العراق وكوريا الشمالية. وهو يحاول منذ غزو العراق الضغط على كوريا الشمالية كى تفكك منشآتها النووية. ولكن مقاربته لإيران يلفها الغموض. وتوضح الحكومة الأمريكية برفضها إقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية مع إيران أن واشنطن لا تعتبر الجمهورية الإسلامية دولة تتمتع بالشرعية وفى الوقت نفسه تطالب الولايات المتحدة إيران بالتعاون مع جهودها لجعل الأوضاع مستقرة فى العراق ومعارضة حدوث تمرد هناك.

وتـود الجمهورية الإسـلامية من جانبها أن يكون العراق مسـتقرا. مع ضمان أن تكون السـلطة بيد أبناء مذهبهم من الشيعة، ومن ناحية أخرى فإنهم لا يريدون أن يكون العراق دولة عميلة للولايات المتحدة أو أن يصبح نموذجا للأيديولوجين فى واشـنطن الذين يظنون أنـه لابـد من وضع الديمقراطيين الموالين للولايات المتحدة فى السـلطة فى أنحاء الشـرق الأوسـط. ويسـعى الإيرانيون منذ فترة طويلة للحصول على ضمانـات بعدم تعرض أمنهم للخطر عند تعديلهم سياسـاتهم الخارجية لمصلحة أمريكا، غير أن إدارة بوش رفضت تلك المقترحات وكانت نتيجة ذلك أن الإيرانيين يسـاعدون الأمريكان فى العراق ببعض الطرق ويعوقونهم بطرق أخرى. فقد شـجع الإيرانيون حلفاءهم الشـيعة فـى العراق على دخول الانتخابات وفى الوقت نفسـه يقول الأمريكيـون والبريطانيون أن العملاء الإيرانيين الذين يسـتخدمون السـلاح والمال يرعون جماعات إيرانية كثيرة ليسـت جميعها من الشـيعة، بما فى ذلك العديد من الجماعات النشـطة فى المثلث السـنى، ولا يشـك أحد فى قدرة إيران على خلق المزيد من الفوضى فى العراق: ردا على هجوم إسـرائيلى أو أمريكى على المنشآت النووية، على سبيل المثال.

وهناك اعتقاد أن أمريكا تستحوذ على تفكير القيادات الإيرانية لأسباب تاريخية، وأن تاريخ العلاقات الأمريكية الإيرانية يتضمن دروسـا كثيرة فى مقدمتها الانقلاب الذى أطاح بمحمـد مصدق رئيـس الوزراء الإيرانى الوطنى فى عام ١٩٥٣ بترتيب من وكالة المخابرات المركزية والفهم الإيرانى الشـائع للشـاه باعتباره أداة للسياسة الأمريكية وجزء من كراهية الإيرانيين الحالية لأمريكا ترجع إلى الأخطاء التى ارتكبتها طوال الفترة التى سبقت الثورة عام ١٩٧٩.

وقد يكون من المفيد التفكير فى التكتيكات الإيرانية التى يعد سعى طهران إلى الغموض النـووى مثالا لها بغض النظـر عن مدى عنوانيتها فى حد ذاتها على أنها جزء أساسـى من اسـتراتيجية دفاعية فى جوهرها. فالجمهورية الإسـلامية فى وضع المدافع من أوجه عديدة ضد أمريكا الموجودة على حدودها الشـرقية والغربية. فقد أقامت الولايات المتحدة قواعد عسكرية جديدة على مقربة من إيران فى قرغيزستان وأوزبكستان بالإضافة إلى قواتها المتمركزة فى العراق وأفغانستان ومن الواضح أن القيادات الإيرانية تحاول وقف مد التاريخ الذى يميل عاجلا أو آجلا إلى إغراق الأيديولوجيات غير المرنة ومؤيديها المستبدين[1].

(١) المرجع السابق.

وبصورة واضحة يمكن للقيادات الإيرانية إقناع الشعب الإيرانى يتحمل تضحيات كبيرة لمقاومة النفوذ الأجنبى. ولكن هذه القيادات تعلم أن الأفكار التى تروجها فى خطب الجمعة تحظى بالقليل من التأييد الشعبى وهى تخشى أن تدفع ثمن المصاعب الاقتصادية للناس وتعاستهم بطرق لا يمكن التنبؤ بها فالساسة الإيرانيون، وخاصة من يتحكمون فى أموال البلاد يبددون فائض النفط الإيرانى فى نوبات إنفاق لا ضابط لها ولا رابط. وقد شجعت القيادات الإيرانية النزعة الاستهلاكية التى تتناقض مع قيم المساواة التى تزعم الإيمان بها. كما أنها ليست على استعداد للمخاطرة بوجود معدل بطالة أكبر لكى تصلح اقتصادها غير الفعال إلى حد كبير ويسيطر عليه القطاع العام الفاسد المحمى من أية منافسة. ورغم كل ما يبدو على إيران من استقرار فهى دولة غير واثقة فى شعبها.

ولو امتلكت إيران القدرة على صنع القنابل النووية على وجه السرعة إلى جانب إنجازها دورة الوقود اللازمة للأغراض السلمية فقد تشعر بقدر أكبر من الأمان إلا أنه من غير المرجح أن تعيد تنشيط سياستها الخارجية القديمة التى تتسم بقدر كبير من الولع بالقتال ولو بدأت من ناحية أخرى فى اغتيال المعارضين فى الخارج، ووجهت ضربات مباشرة إلى أهداف غربية فمن المؤكد أنها ستجبر أمريكا وحلفاءها حتى الأوروبيين منهم الذين يرجع أنهم مهمومون فى المقام الأول بمصالحهم على اتخاذ إجراء قوى. وإيران عرضة لأن تتخذ ضدها إجراءات تفرض عليها المزيد من العزلة. وقد يكون لفرض الاتحاد الأوروبى شريكها التجارى الأساسى عقوبات عليها أو حتى التهديد بفرض تلك العقوبات أثر يؤدى إلى زعزعة استقرارها بشكل حاد.

وفى غياب استطلاعات الرأى التى يعول عليها، يعتقد الكثير من المراقبين الأجانب أن معظم الإيرانيين سوف يؤيدون امتلاك إيران للاسلحة النووية. وهم يفترضون بشكل منطقى أن الإيرانيين مستاءون من امتلاك جيرانهم الأقربين مثل باكستان والهند وإسرائيل أسلحة نووية بينما هم لا يملكونها ومن جانب آخر هناك غضب شعبى وسخط على أهل الحكم من جراء المصاعب التى يعيشونها وهناك حالات أو كوارث فشل النظام فى التعامل معها، وهناك كارثتان يعدان نموذجا للفشل الحكومى.

الكارثة الأولى فى مدينة بام الواقعة فى الجنوب الشرقى من إيران حيث قتل الزلزال ما يزيد على ٢٦ ألف نسمة فى شتاء عام ٢٠٠٤ أما الثانية فكانت فى باكداشت ذلك

الحى الفقير الواقع خارج طهران حيث حكم مؤخرا بالإعدام على رجل ارتكب جرائم قتل واغتصاب فى كثير من الحالات راح ضحيتها عشرون شخصا معظمهم صبية صغار. ويعتبر تأخير إعادة إعمار بام بسبب العجز والتنازع فيما بين الإدارات والفساد فضيحة قومية. وكذلك كان رد الفعل تجاه باكداشت حيث كانت السلطات المحلية على امتداد فترة تزيد على السنة تبدى عدم اكتراث واضح عند اختفاء أبناء أناس عاديين بشكل منفرد وقد تخلى سكان تلك المناطق عن ترددهم المعتاد فى سب السلطات بعد أن فاض بهم الكيل إلى حد كبير من الدولة ولم يعودوا يثقون فى دوافعها ويرفضون ما تدعيه من كفاءة واقتدار.

هذان نموذجان للعلاقة السيئة بين الحكام والمحكومين التى تنعكس على تزايد شك الإيرانيين من سكان المدن فى السياسة (كانت نسبة مشاركة الناخبين فى الانتخابات الأخيرة التى كثرت فيها العيوب والأخطاء حوالى ٣٥ بالمائة فى المدن الكبرى بما فى ذلك طهران).

لقد أصبحت برامج إيران النووية مهمة بالنسبة لطموح الجمهورية الإسلامية الأوسع فى الشئون الخارجية. ويؤمن معظم الإيرانيين بأن الإسرائيليين والأمريكيين لا يعتزمون شن هجوم على منشآتهم النووية. وعلى فراش هذا الوهم أو هذا الاقتناع يحاولون فى إيران النوم ومعايشة نوع من الاطمئنان ويروج الرئيس الإيرانى فى كلماته الملتهبة لهذا النوع من المخدرات السياسية.

(٤)

عكفت وتعكف مراكز الدراسات وصناعة السياسة والقرار بالعاصمتين إسلام أباد وطهران طوال الأعوام الماضية ومازالت، لدراسة ما يمكن أن تتعرض له المنشآت النووية وغيرها من الأهداف العسكرية الحيوية من مخاطر تتمثل فى عمليات تستهدف تدميرها أو تخريبها على الأقل لوضع خطط التأمين والحماية الكفيلة بمواجهة مثل هذه المخاطر.

وبالنسبة للمشاريع النووية الباكستانية هناك مخاطر جدية سواء من جانب الهند، أو من جانب إسرائيل، وإن كانت علاقتها الحالية بالولايات المتحدة تحد من هذه المخاطر أما بالنسبة لإيران فإن حصار المخاوف والمخاطر يتضاعف باستمرار، خاصة وهى تواصل التقدم فى مجالى المشاريع النووية والصواريخ أرض أرض المتوسطة والبعيدة المدى. وطوال الفترة الماضية ظلت أقمار التجسس الأمريكية والإسرائيلية تراقب بانتظام سير العمل فى المفاعل النووى فى بوشهر، وخلال هذا العام التقطت هذه الأقمار صورا لقبة المفاعل النووى

ولأنابيب التبريد وأجهزة الضخ وبما يشير إلى قرب انتهاء العمل به. وقد أسهم نجاح إيران فـي تجربة الصواريخ أرض أرض من طراز شـهاب ٣ الـذى يبلغ مداه ما يقرب من ١٣٠٠ كيلو متر فى زيادة حجم المخاطر التى تحيط بإيران.

وعقب تلك التجربة أعلن شـيمون بيريز أن إسـرائيل قلقة جدا من نجاح تلك التجربة، خاصة أن إيران فى الطريق لإنتاج صواريخ أرض- أرض مداها يبلغ عشرة آلاف كيلو متر.

أما صحيفة «ها آرتس» فقد كشفت عن أن إسرائيل تدرس إمكان القيام بعملية عسكرية لإحباط المشـاريع الإيرانية التى تهدد الأمن الإسرائيلى. ولم تنس الصحيفة أن تذكر القراء أن إسـرائيل سـبق أن هاجمت المفاعلين النوويين العراقيين عام ١٩٨١. وعادت إسـرائيل لتجديد تهديداتها لإيران حيث أعلن شيمون بيريز فى باريس أن إيران مركز الإرهاب فى الشـرق الأوسط دون شـك وأنهم هم الذين يمولون ويسلحون حزب الله والجهاد الإسلامى وحماس ومن واشـنطن كشفت الأنباء الصحفية عن نقاش أمريكى إسرائيلى حول المشاريع النووية الإيرانية والقدرة على إنتاج سلاح نووى، وعن التوقيت الأنسب لضربها.

وضاعف من حجم التهديد الإسرائيلى لكل من باكستان وإيران نجاح إسرائيل فى مايو ٢٠٠٠ فى إطلاق صاروخ من طراز أريحا - ٣ من غواصة من طراز دولفين الألمانية الصنع، أصاب هدفا فوق سـطح الأرض على مسـافة ١٥٨٤ كيلو مترا. ومـن المعروف أن الصاروخ أريحا- ٣ الإسـرائيلى الصنع يبلغ مداه نحو ٢٧٠٠ كيلو متر وقد أدى الإعلان عن نجاح هذه التجربة التى كشـفت مدى التطور العسكرى الإسـرائيلى ومدى الإصرار على التحول إلى قـوة إقليمية عظمى علميا واقتصاديا وعسـكريا وسياسـيا إلى إطلاق حجم من المخاوف الحقيقية غير مسبوق خاصة فى إيران وذلك لمجموعة أسباب منها:

١ - التيقن من قدرة إسرائيل على تنفيذ عملية هجومية ضد المنشآت النووية والصاروخية من تحت سطح الماء، أى من غواصة رابضة أو متحركة تحت سطح الماء، يتعذر رصد وجودها أو اقترابها. ومثل هذا الهجوم يمكن أن تواكبه عملية هجوم جوى، وآخر بالصواريخ أرض أرض متوسطة المدى وبما يربك القيادة العسكرية الإيرانية ويصيبها بالاضطراب.

وتمتلك إسـرائيل بجانب الصاروخ أريحا - ٣ الصاروخ الباليستيكى أى العابر للقارات من طراز شـافيت الذى يبلغ مداه ٤٥٠٠ كيلو متر وهناك نوع آخر يبلغ مداه ٧٥٠٠ كيلو متر والعملية الهجومية من تحت سطح الماء يمكن تنفيذها من خارج المياه الإقليمية الإيرانية

إذا مـا وضعنا فى الاعتبار أن مدى الصاروخ أريحا ٣ يبلغ ٢٧٠٠ كيلو وهى مسـافة كافية لتهديد العديد من الأهداف النووية والصاروخية الإيرانية سواء من الغرب أو الجنوب.

٢ – احتمال اشـتراك الولايات المتحدة فى مثل هذا الهجوم. أما إذا أرادت ألا تتورط فى هذه العملية فإن إضاءة النور الأخضر لإسـرائيل يوفر الفرصة التى تنتظرها لوضع هذه العملية موضع التنفيذ.

ويدرك المسـئولون الإيرانيون أن المعسـكر اليمينى الأمريكى مازال مصرا على أن إيران دولة من دول محور الشـر. بالاضافة إلى كوريا الشمالية. وأن كل ما قدمته إيران من أجل الحرب ضد أفغانستان ومنظمة القاعدة لم يحل دون اتهامها بأنها من دول محور الشر.

٣ – كان نجاح إسرائيل فى إطلاق قمر التجسس أوفيك– ٥ فى ٢٨ مايو ٢٠٠٢ يعنى أنهـا أصبحت تمتلك قدرة على جمع المعلومات عن الأهداف الإيرانية بوسـائل ووسـائط إسـرائيلية، أى أنها لم تعد تعتمد على ما تحصل عليه من معلومات وصور من السـلطات الأمريكية ومن أقمار التجسس الأمريكية.

ويغطى القمر أوفيك – ٥ المنطقة الممتدة من باكسـتان وجمهوريات آسـيا الوسطى شرقا وحتى المغرب غربا.

وهذه المنطقة يعتبرها المسئولون الإسرائيليون مجالا حيويا.

٤ – علـى الرغـم من أن إيـران وضعت فى الاعتبار توفير وسـائل دفاع جوى عن كل منشآتها النووية والصاروخية فإن القيادة على بينة من أن منظومة الدفاع الجوى غير مكتملة لأنها لا تمتلك عناصر صاروخية أو شبكة من الصواريخ المضادة للصواريخ ولذا فإن أية عملية هجوم بالصواريخ متوسطة أو بعيدة المدى سواء من تحت سطح الماء أو من قواعد إطلاق برية يمكنها أن تلحق الضرر بالمنشآت النووية والصاروخية.

وفـى مواجهة هذه المخاطر، تسـعى إيران بقوة لإتمام مشـروعها النـووى التى أكدت أكثر من مرة أنه للاسـتخدام السـلمى، وفى هذا المجال تعتمد بشـكل جدى على روسيا وكوريا الشمالية والصين وقد سعت الولايات المتحدة للضغط على روسيا والصين لوقف هذا التعاون، إلا أنها حتى الآن لم تتمكن من تحقيق أى نجاح.

ويحـرص الـروس والإيرانيـون على اسـتمرار تحالفهما الذى يحقق لهمـا مصالحهما المشـتركة فإيران تسـتورد نحو ١٠٪ من جملة صادرات روسيا العسكرية وبما يشكل دعما قويا للاقتصاد الروسى.

وإذا ما أمعنا النظر فى تجربة إسرائيل غير المسبوقة بإطلاق صاروخ متوسط المدى من غواصة فى مياه المحيط الهندى بالقرب من سيريلانكا سنتبين أن هناك مجموعة رئيسية من الرسائل والمؤشرات منها:

- رسالة لكل من باكستان وإيران بأن مشاريعهما ومنشآتهما النووية والصاروخية أصبحت فى متناول وفى مدى الصواريخ متوسطة المدى ومن المياه القريبة من سواحلهما.
- رسالة لعدد من الدول العربية بأنها أصبحت قادرة على إغلاق منافذ المرور البحرية فى البحرين الأحمر والمتوسط بالاضافة إلى الخليج وأنها قادرة على تهديد خطوط المواصلات البحرية وبجانب ذلك امتلاك القدرة على ضرب الموانى والقواعد البحرية والأهداف الاستراتيجية.
- إجراء التجربة فى مياه المحيط الهندى بالقرب من سيريلانكا. يكشف عن تعاون إسرائيلى وثيق مع كل من الهند وسيريلانكا فى مجالات متعددة من أهمها التسليح صناعة وتجارة وتبادل المعلومات والتنسيق الاستراتيجى.

ولا شك أن الهند على الأقل على بينة من حقيقة الرسالة الموجهة لكل من باكستان وإيران وأنها تقرها ضمنا خاصة بالنسبة لباكستان.

- وصول إسرائيل إلى مياه المحيط الهندى بهذه الصورة يكشف عن انضمامها للقوى البحرية العالمية التى تتخذ من مياه هذا المحيط مجالا لنشاطها العسكرى وتكشف التجربة عن زيادة قدرة الردع الإسرائيلية. فهاهى تمتلك ما يوفر لها توجيه ضربة أو ضربات لهدف أو عدة أهداف برية أو بحرية والاختفاء تحت سطح الماء.
- وجود القطع البحرية الإسرائيلية بمياه المحيط الهندى يفتح لها آفاق توثيق علاقتها بدول جنوب وجنوب شرق آسيا ومضاعفة تعاونها مع دول الشاطئ الشرقى لإفريقيا.
- هذا الوجه الجديد الذى ظهرت وتظهر به القوات البحرية يشير إلى مدى التطور الذى لحق بهذا السلاح الذى ظل السلاح الأقل تطورا قياسا بالسلاح الجوى ذراع إسرائيل الطويلة والقوات المدرعة حتى قرب نهاية القرن الماضى.

ولسنوات طويلة اعتمدت البحرية الإسرائيلية فى تسليحها على اللنشات الصاروخية السريعة من طراز سعر المزودة بالصواريخ سطح سطح من طراز جابرييل، ثم بالصواريخ سطح- سطح من طراز هاربون الأمريكية الصنع ومداها ٢٠٠ كيلو متر وعندما واجهت إسرائيل قطع طريق مواصلاتها البحرية بالبحرين المتوسط والأحمر وإغلاق باب المندب

خلال معركة أكتوبر ١٩٧٣ تبينت أن فكرها البحرى الاستراتيجى متخلف وقصير النظر قياسا بالفكر الاستراتيجى المصرى.

وفى مواجهة خطة الحصار البحرى المصرى وقف السلاح الجوى الإسرائيلى عاجزا أو غير قادر على الحد من آثار هذا الحصار ولم يكن السلاح البحرى الإسرائيلى مؤهلا لمواجهة مثل هذا الموقف.

ومن هنا بدأت إسرائيل فى تبنى فكر هجومى قادر على الانطلاق بعيدا فى أعالى البحار لا لتأمين المياه الإقليمية وطرق المواصلات فقط بل لتهديد طرق مواصلات الآخرين والاقتراب من أهدافهم الحيوية وبما يجعل من إسرائيل قوة ردع يعتد بها وهو ما تطلب الحصول على قطع بحرية كبيرة نسبيا تجمع بين إمكانية العمل فى أعالى البحار أى فى المياه الزرقاء والقدرة على البقاء فى البحر لفترات طويلة بالاضافة إلى خفة الحركة والقدرة العالية على المناورة وبالضرورة يجب أن تتسلح هذه القطع بتسليح حديث وفعال يعتمد أساسا على الصواريخ سطح- سطح وسطح- أرض وسطح- جو.

وأى نظام تسليح جيد لابد أن تتوافر له وبه عناصر ووسائل استطلاع بحرى وجوى متطورة وأنظمة حرب إلكترونية بالإضافة إلى عناصر قيادة وسيطرة متكاملة ومتطورة.

وفى هذا الإطار سعت إسرائيل للحصول على ٣ غواصات ألمانية الصنع من طراز دولفين ليصبح عدد ما تمتلكه ست غواصات ويمتاز هذا الطراز بالسرعة والقدرة على المناورة بالإضافة إلى تزويده بنظم اليكترونية وتكنولوجية حديثة مع إمكان تزويده بصواريخ يمكنها أن تحمل رؤوسا حربية أو نووية.

وفى ظل هذه المخاطر فإن الباكستانيين والإيرانيين لا يمكنهم إغماض عيونهم لذا يواصلون العمل لدرء هذه الأخطار وهم يدركون أن بالعالم قوة عظمى وحيدة هى الولايات المتحدة ومع ذلك فإن هامش المناورة المتاح يسمح بالكثير إذا ما امتلكت الدولة الإرادة والمرونة وحسن الفهم والقدرة على المناورة.

٥

إذا لم تحسن القيادة الإيرانية قراءة حقيقة المخططات والتوجهات الأمريكية وأصرت على المضى قدما فيما يتعلق باستكمال برامجها النووية، فإن الصدام العسكرى يصبح أكثر احتمالا. بل يمكن أن تدور عجلته بأسرع من تصورات المراقبين.

وليس سرا أن القيادة العسكرية الأمريكية حددت ٣٢٥ هدفا إيرانيا لقصفها سواء بالصواريخ البعيدة والمتوسطة المدى أو جوا ومن هذه الأهداف المنشآت النووية المنتشرة فى كافة أنحاء إيران خاصة فى بوشهر وأصفهان وآراك وطهران ونتانز بالإضافة إلى المصانع الحربية ومراكز القيادة والسيطرة ومواقع الدفاع الجوى التى ستحتل أولوية خاصة للحيلولة دون عرقلة خطط وعمليات القصف الجوى. بالاضافة إلى مقار القيادات السياسية والعسكرية.

واذا ما بدأت العمليات الحربية فلن تقتصر الضربات على المواقع والمنشآت العسكرية بل يمكن أن تمتد لتشمل أهدافا مدنية مثل المصانع وآبار البترول والموانئ والسدود والخزانات المائية ومحطات توليد الكهرباء والكبارى ومراكز الاتصالات السلكية واللاسلكية ومحطات الإذاعة والتليفزيون. وهناك داخل الإدارة الأمريكية من يعمل لإسناد مثل هذه المهمة لإسرائيل لخبرتها السابقة فى قصف المفاعلات الذرية العراقية.

وكان ديك تشينى نائب الرئيس الأمريكى السابق قد أعلن فى خطاب له عقب نجاح الرئيس بوش الابن فى الانتخابات عن دور لإسرائيل فى قصف المنشآت النووية والعسكرية الإيرانية. وإن كان قد اوضح أن إسرائيل يمكن أن تنفذ هذا الهجوم دون التنسيق مع الولايات المتحدة.

ومن المعروف أن لإسرائيل مصلحة مباشرة فى حرمان إيران من حقها فى امتلاك قنبلة نووية لإدراكها أن فى مثل هذا النجاح تهديدا لأمنها ولمصالحها فى المنطقة وزعزعة لاستقرارها وقد سعت إسرائيل دوما لتجنب مثل هذا الموقف، وقد حققت فى مسعاها النجاح حتى الآن.

وطوال الفترة الماضية وهناك حركة مستمرة داخل مراكز القيادة الأمريكية لإعداد خطط العمليات والتدريب عليها، وصاحب ذلك عدة تحركات برية وبحرية بالمناطق المحيطة بإيران وعلى الجانب الإيرانى توالت التصريحات الحادة عن رد عسكرى مؤلم، وضربة وقائية ضرورية أى المبادرة بعملية أو عمليات عسكرية ضد القوات والقواعد العسكرية الأمريكية المنتشرة بالدول المحيطة بإيران.

وقد أعلن أكثر من مسئول عسكرى وسياسى إيرانى عن قدرة إيران على إلحاق خسائر فادحة بالأمريكيين.

وبينما كان العسكريون الأمريكيون مشغولين بتحديد الأهداف الإيرانية، كان العسكريون الإيرانيون منهمكين فى جمع المعلومات عن القوات العسكرية الأمريكية الموجودة بالدول المحيطة أو المجاورة لإيران سواء فى جمهوريات آسيا الوسطى وغيرها من الدول التى كانت جزءا من الاتحاد السوفيتى أو فى أفغانستان أو الموجودة بدول عربية مثل قطر والبحرين والكويت والإمارات بصفة عامة والعراق بصفة خاصة.

وقد أعلن رحيم صفوى قائد الحرس الثورى الإيرانى أن للولايات المتحدة نحو ١٩٠ ألف جندى أمريكى بالدول المجاورة والمحيطة بإيران وهذه القوات تقع فى مرمى النيران والصواريخ الإيرانية.

أى أن القيادة العسكرية الإيرانية تتصرف وتجرى حساباتها وهى تضع فى اعتبارها أن هذا الحجم من القوات الأمريكية يعد رهينة وورقة تهدد بها الولايات المتحدة.

وإذا ما بادرت إيران بقصف مثل هذه القوات قبل أن تبدأ عمليات الهجوم على المنشآت الإيرانية فإن حجم الخسائر البشرية الأمريكية سيكون فادحا ومؤلما.

ومثل هذه العملية لا يمكن استبعادها إذا ما أحدق الخطر بإيران خاصة أن القيادة الإيرانية تدرك أن مشروعها النووى ليس هو الهدف الرئيسى بل قدرة إيران على امتلاك سلاح يردع الآخرين ويحول بينهم وبين كسر الإرادة الإيرانية وتصفية المشروع الثورى الإيرانى.

وهناك تيار قوى داخل إيران يفكر فى رد فعل مناسب إذا ما نفذت إسرائيل تهديدها وقصفت المنشآت النووية الإيرانية.

وفى هذا الشأن لا تملك القيادة الإيرانية القدرة على المبادرة بالعمل العسكرى ضد إسرائيل مثلما تملكها تجاه القوات الأمريكية الموجودة بالمنطقة لأن مثل هذه المبادرة يمكن أن تكون المبرر لإنشاء تحالف دولى لغزو إيران.

ولن تتردد دول أوروبية وغير أوروبية فى الانضمام لهذا التحالف. وقد يكون فى هذا التحالف حل للمشكلة الأمريكية فى العراق.

وبداخل الإدارة الأمريكية اقتناع بوجود دور إيرانى وسورى فى دعم المقاومة داخل العراق وأن هذا الدعم يمتد ليشمل الجماعات والمنظمات الإرهابية التى انتقلت للعمل ضد الأمريكيين داخل العراق. وطوال الفترة الماضية ضغطت الإدارة الأمريكية لوقف عمليات التسلل من حدود البلدين للحيلولة دون استمرار هذا الدعم. إلا أن النتيجة لم تكن مرضية

فلكلا البلدين مصلحة فى زيادة حجم الورطة الأمريكية بالعراق للحد من عمليات الضغط التى تمارسها ضد البلدين بعد أن وصلت بقواتها إلى حدودها المشتركة مع العراق.

وخلال الفترة التى أعقبت اغتيال رفيق الحريرى رئيس الوزراء اللبنانى، مارست الولايات المتحدة بالتعاون مع فرنسا وعدد من الدول الأوروبية ضغطا هائلا على سوريا إلى أن قررت القيادة السورية الانسحاب من لبنان وأعقب ذلك بدء الضغوط لضبط الحدود العراقية السورية. وتبقى إيران. لذا فإن أى مبادرة إيرانية بالعمل ضد إسرائيل ستكون نقطة انطلاق لحل كل المشاكل مع إيران مرة واحدة.

وقد خططت القيادة الإيرانية لعملياتها الاحتمالية وتحسبت بقدر الإمكان لمختلف الاحتمالات والآن لديها خطط لضرب القوات الأمريكية بالمنطقة ضربة وقائية لاستباق أى عمليات هجومية أمريكية. كما أن لديها خططا لرد الفعل إذا ما انتظرت بدء العمليات الأمريكية.

ولأن القيادة الأمريكية عادة ما تلجأ لتدمير شبكات الاتصالات ونظم القيادة والسيطرة فقد اصدرت القيادة الإيرانية أوامرها للتشكيلات والوحدات المختلفة للقوات المسلحة وللحرس الثورى بتنفيذ العمليات المحددة لها عند بدء الهجوم الأمريكى دون انتظار أى أوامر من القيادة لأن وصول مثل هذه الأوامر قد يتعذر إذا ما تضررت شبكة الاتصالات ونظم القيادة والسيطرة. والهدف الإيرانى واضح ويتمثل فى إصابة الأمريكيين والأهداف الأمريكية الموجودة فى المنطقة برا أو بحرا إصابات موجعة وقاسية وتكبيدها خسائر فادحة.

ويريد الإيرانيون أن يثبتوا بذلك أنهم ليسوا العراق أو أى هدف سهل آخر. ويريدون قبل أن تبدأ العمليات ردع الأمريكيين بالتهديد وببث المعلومات التى تثير فزع القيادة الأمريكية والرأى العام الأمريكى وبالصورة التى تجعل من المضى فى مخطط العداء لإيران أمرا مكلفا. وخلال الأشهر الأخيرة من صيف عام ٢٠١٠ تم الإعلان عن إصابة أجهزة الكومبيوتر الخاصة بمفاعل بوشهر بفيروس خطير وجديد لا يمكن إنتاجه إلا فى الدول المتقدمة جدا أطلقوا عليه اسم ستوكس نت. أدى إلى تخريبها وتدمير برامجها وتأخير موعد بدء تشغيل المفاعل لعدة أشهر وهكذا بدأت الحرب بصورة جديدة تماما.

(٦)

على مدار السنوات الأربع الماضية عمد الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد إلى طمأنة الشعب بأن سياسته الخارجية الاستفزازية لن تسفر عن مواجهة عسكرية مع خصوم بلاده

بالمنطقة وماوراءها كما ردد أحمدى نجاد العبارة المأثورة عن آية الله الخمينى «أمريكا لا تقدر على فعل أى شئ». ووعد بإلقاء أمريكا خارج المنطقة وتلقينها درسا.

جاء هذا الهجوم السريع من قبل الرئيس الإيرانى ردا على تصريحات أدلى بها رئيس هيئة الأركان الأمريكى أدميرال مايك مولن حول أنه جرت صياغة خطط طارئة لشن عمل عسكرى ضد النظام الخمينى.

لكن المؤسسة العسكرية الإيرانية التى ستحمل على عاتقها مسئولية التعامل مع أى حرب لم تشارك الرئيس تفاؤله.

وقد استغل قادة الجيش النظامى مناسبات احتفالية رسمية روتينية لإطلاق تلميحات حول اعتقادهم بأن إمكانية تعرض الجمهورية الإسلامية لهجوم يتعذر استبعادها كما أوضحوا أن قواتهم التى تعانى من ضعف مستوى تجهيزاتها ستعجز عن التصدى لعدو أقوى يعتمد على أسلحة متطورة. وكان من شأن ذلك ظهور تقارير صحافية حول أن الحرس الثورى الإسلامى وليس الجيش النظامى قد أوكلت اليه مهمة التعامل مع أى هجوم محتمل.

وبعد فترة أصبح واضحا أن الحرس الثورى الإسلامى أيضا لا يشارك الرئيس أوهامه، حيث أكد جنرال حسين حمدانى قائد الحرس الثورى الإسلامى داخل طهران خلال مقابلة أجريت معه على أن «من يستبعدون تعرضنا لهجوم خاطئون، من جانبنا نعتقد أن مسألة التعرض لهجوم تشكل احتمالا قائما».

وفى نقد مستتر لميل أحمدى نجاد للإدلاء بتصريحات استفزازية، حذر الجنرال من «خوض مغامرات» مشددا على أنه لا ينبغى التقليل من خطورة أى عدو.

وبالحكم من خلال تعليقات حمدانى والتصريحات الصادرة عن قادة عسكريين آخرين حسبما ورد بالصحف الرسمية فى طهران يبدو أن الحرس الثورى الإسلامى الذى تعهده أحمدى نجاد فى البداية بالرعاية وفى المقابل دفع الحرس الثورى به نحو الرئاسة، قد فترت مشاعره تجاه راعيه.

ويمكن القول بأن دعم الحرس الثورى الإسلامى لأحمدى نجاد نابع من الضرورة وليس الاختيار. وقال حمدانى «سيتعين علينا حماية النظام حتى ولو كان بنى صدر هو الرئيس».

فـي ظـل الخطاب الخميني الراهن فإن مقارنة أحمدى نجاد بأبو الحسـن بنى صدر، الذى تولى منصب رئيس الجمهورية الإسـلامية لفترة قصيرة قبل الرحيل إلى المنفى لا تعد بالأمـر الإيجابى والتسـاؤل الآن، ما تصور قادة الحرس الثورى الإيرانى لصراع عسـكرى وكيف يأملون فى التعامل معه؟

بالحكم من خلال التصريحات المعلنة، لا يبدو أنهم يعتقدون أن الولايات المتحدة ستقدم على شن غزو شامل ضد إيران مثلما فعلت بالعراق أو أفغانستان وإنما ينظرون إلى أزمة تلوح فى الأفق تضم خمس مراحل.

تتألف الأولى من اندلاع أعمال شـغب داخلية ربما بسـبب تفاقـم الأوضاع الاقتصادية بالبلاد، وهو ما يطلق عليه «الفتنة الاقتصادية» ومن الممكن أن يتسبب اندلاع أعمال شغب من جانب القطاعات الأكثر فقرا من المجتمع فى مزيد من التقويض لشرعية النظام خاصة أنها بعد الثورة ضد إعادة انتخاب أحمدى نجاد.

فى المرحلة الثانية ينشر الحرس الثورى الإسلامى قواته عبر البلاد لحماية النظام، وبالنظر إلى عدد قواته البالغة ١٢٥,٠٠٠ فرد بجانب ٣٠٠,٠٠٠ من «الباسيج» وهى قوة شبه عسكرية فإنه سيكون من الصعب على الحرس الثورى تولى مسئولية حماية دولة باتساع إيران.

فى المرحلة الثالثة، تتعرض موارد الحرس الثورى الإسـلامى لمزيد من الضغوط للتوافق مع الثورات المسلحة من جانب بعض الأقليات العرقية فى إيران.

فى المرحلة الرابعة، تسـتغل واشـنطن قواتها الجوية المتفوقة فى تدمير أنظمة القيادة والتحكـم الخاصة بالحرس الثورى الإيرانى وسـحق وحداتـه النخبوية خاصة قوة القدس المتمركزة قرب الحدود العراقية.

أما المرحلة الخامسة، فتحاول المعارضة الداخلية خلالها السيطرة على السلطة فى طهران عبر إطلاق وعود بوقف الصراع وتجنب اشتعال حرب كاملة بالنسبة للجيش النظامى الذى حرصت الهجمات الأمريكية على تجنبه، فيشـارك فى هذه المرحلة من خلال دعم حكومة مؤقتة بقيادة رئيس الوزراء السابق مير حسين موسوى والرئيس السابق محمد خاتمى.

لكن كيف يأمل الحرس الثورى الإسلامى فى التعامل مع الموقف؟ الإجابة الصادرة عن القادة العسـكريين بسـيطة، الحرب غير المتكافئة خارج الحدود الإيرانية، المصممة لتثبيط الولايات المتحدة عن توسيع دائرة الهجمات الأولية ضد منشآت إيرانية.

لكن كيف سيجرى تنفيذ ذلك؟ يلف الغموض الإجابة التى يطرحها القادة العسكريون عن هذا التساؤل حيث يدعون أن الأصول الإيرانية بالخارج خاصة الفرع اللبنانى لـ «حزب الله» و«حماس» فى غزة. ستصدر لها أوامر بفتح جبهات جديدة. من المفترض أن يحدث ذلك عبر مهاجمة إسرائيل بالصواريخ وسيتولى ضباط الحرس الثورى الإيرانى مسئولية القيادة الكاملة لوحدات «حزب الله» فى لبنان خلال الأزمة.

كما يسيطر الحرس الثورى الإسلامى على فيلق بدر وجيش المهدى بالعراق اللذين يتباهيان بأنهما يضمان قوة إجمالية تضم ١٥.٠٠٠ فرد وفى أفغانستان يعتمد الحرس على قوة من ٥٠٠٠ فرد من مقاتلى شيعة هزارة على مسيرة يوم من كابل.

وأثارت وسائل الإعلام الإيرانية احتمالية حدوث «تعاون طارئ» مع جماعات غير شيعية بالمنطقة ويذكر أن الحرس الثورى الإسلامى تولى تمويل جماعة «الحزب الإسلامى» التابعة لقلب الدين حكمتيار. وهى جماعة سنية أفغانية. لسنوات وربما يمكنه الاعتماد عليها فى شن عمليات ضد قوات حلف الناتو ونظرا لأن حكمتيار على اتصال بطالبان فإن بإمكانه أيضا العمل كجسر بين الحرس الثورى الإسلامى وقوات الملا عمر بأفغانستان.

إلا أن تحليل الحرس الثورى الإسلامى ينطوى على العديد من نقاط القصور منها أنه يفترض أن الصراع سيستغرق وقتا طويلا كافيا حتى تؤثر الحرب غير المتكافئة على الرأى العام بالولايات المتحدة. إلا أن الصراع يمكن تقصير أمده إذا تبدل الوضع الإيرانى الداخلى على نحو يضر بالحرس الثورى وصورته السياسية.

كما أنه من غير المؤكد ما إذا كان «حزب الله» اللبنانى سيقدم على مخاطرة انتحارية على أمل إنقاذ نظام طهران المحتوم عليه بالموت. إن الشيخ حسن نصر الله على استعداد لتلقى أوامر من طهران مادام «المرشد الأعلى» بإمكانه وقادرا على توقيع شيكات ضخمة.

وبما يتضح أيضا أن فيلق بدر وجيش المهدى صديقان فى السراء فحسب. على أى حال فإن قدرتهما على التفوق على الجيش العراقى الجديد وحلفائه الأمريكيين ما تزال محل شك. ويذكر أنه رغم خضوعه لقيادة ضباط الحرس الثورى الإيرانى آنذاك. لقى جيش المهدى هزيمة فى معركة البصرة من جانب الوحدات العسكرية العراقية الجديدة بقيادة رئيس الوزراء نورى المالكى.

بالنسبة لقوة هزارة فإن زعيمها عبد الكريم خليلى يتولى حاليا منصب نائب رئيس أفغانستان بفضل الدعم الأمريكى.

إضافة إلى ذلك يعد الرئيس أحمدى نجاد مخطئا فى استبعاد أى احتمالية لتعرض إيران لهجوم كما أن قادة الحرس الثورى الإسلامى على خطأ فى اعتمادهم على آخرين فى مساعدة النظام للخروج من مأزقه فى حال وقوع هجوم.

فى الأهوال الإيرانية

من يستمع إلى تصريحات المسئولين الإيرانيين عن الأهوال التى يمكن أن تواجهها الولايات المتحدة الأمريكية إذا ما أقدمت على قصف أهداف إيرانية، يتصور أن إيران هى القوة العظمى الوحيدة فى العالم، وأن الولايات المتحدة ليست أكثر من قوة دولية مارقة يمكن تأديبها من أجل أن تعود إلى جادة الصواب وفى آخر التصريحات قال مسئول إيرانى كبير إنه سيتم إطلاق ١١,٠٠٠ صاروخ خلال دقيقة واحدة باتجاه أهداف أمريكية.

وعلينا أن نتصور الرقم ١١,٠٠٠ صاروخ وخلال ٦٠ ثانية، معنى هذا أن هناك أضعاف أضعاف هذه الكمية من الصواريخ بالترسانة العسكرية الإيرانية، وأن الصناعة الحربية الإيرانية ومصادر التسليح الخارجية قادرة على الوفاء باحتياجات طهران دائما قبل وأثناء المواجهة العسكرية إذا ما تحولت إلى واقع ويعنى أيضا أن هناك قواعد لإطلاق مثل هذه الكمية من الصواريخ المتوسطة والبعيدة المدى ومعنى هذا أيضا أن القواعد العسكرية فى المنطقة، خاصة فى منطقة الخليج، وبالذات قاعدة العديد ستتعرض لعدد وافر من الصواريخ يمكن أن تخرجها من المعركة أو تفقدها قدراتها على الأقل، وأن آلاف الجنود الأمريكيين سيدفعون ثمن المغامرة الأمريكية سواء بالموت أو بالإصابة ويعنى أن قطع الأسطول الأمريكى فى الخليج معرضة للغرق أو لإصابات فادحة.

ولا يمكن للمراقب سوى الإشفاق على أمريكا من هذا المصير المرعب بكل ما سيترتب عليه من آثار ستتجاوز بالقطع حدود المهانة التى سبق أن تعرضت لها أمريكا فى فيتنام.

واذا كانت إيران تهدد أمريكا وتتوعدها بمثل هذا الهول فما هو انعكاس ذلك على الدول العربية المجاورة؟

ومن المعروف أن إيران سواء تحت حكم الشاه أو حكم الملالى تطلعت وتتطلع لبسط نفوذها على منطقة الخليج، ورأت أن من حقها أن تصبح قوة إقليمية عظمى، وبمثل هذه التهديدات المخيفة وهذه القوة العسكرية التى تعلن عنها، والأسلحة النووية التى تسعى لامتلاكها تريد إقناع دول المنطقة بقبول دور التابع لإيران وأن تسلم بحقها فى زعامة المنطقة وقيادتها.

الإمام الغائب.. وإنقاذ إيران

رياح الحرب تتجمع للهبوب على إيران، وفى ظل قعقعة السلاح فى الخليج من جراء الحشد البحرى الأمريكى وتحت وقع القرارات الدولية بفرض عقوبات على نظام الملالى فى طهران التى سبقتها وواكبتها وأعقبتها تصريحات الرئيس الإيرانى أحمدى نجاد التى تجاوزت كل سقوف التحدى المألوفة، ارتفع صوت الجنرال رحيم صفوى الذى يقف برتبته العسكرية الرفيعة على قمة الهرم العسكرى محذرا وبقوة من أن الدولة لا تملك القوة القادرة على تأمينها، واعترف بصراحة علنا بأن الهجوم الجوى المعادى فيما لو حدث فلن يكون فى مقدور وسائل الدفاع الجوى المتاحة مواجهته أو الحد من تأثيره، فالقوات الجوية الإيرانية عفا عليها الزمن، والدفاع الجوى فى حالة من الضعف والعجز تقعده وتشل فاعليته.

وأوضح أن السماء مفتوحة أمام القوى المعادية، ولا يختلف الأمر بالنسبة للحدود البرية والبحرية والمياه الإقليمية، كما أن الحدود البرية التى تبلغ ٨٠٠٠ كيلو متر من الصعب تأمينها أو حمايتها والحيلولة دون اختراقها.

هذه الحقائق التى كشف عنها الجنرال صفوى، هل هى معلومات مؤكدة، تكشف الوضع الحالى للقوى العسكرية الإيرانية؟ أم هى جزء من حملات التضليل المقصود بها خداع الأمريكيين؟

وفيما لو كانت كذلك، هل سيبتلع الأمريكيون الطعم بهذه السهولة؟ وهل تعجز وسائلهم عن الاقتراب من حقيقة الأوضاع العسكرية الإيرانية؟ وأمام الحشود العسكرية الأمريكية فى الخليج والتى لم تحدث منذ حرب تحرير الكويت عام ١٩٩٠، ١٩٩١، والتى تشكل خطرا حقيقيا، لم يجد الرئيس الإيرانى ما يقوله سوى أن الإمام الغائب سيظهر بطريقة ما لإنقاذ الجمهورية الإسلامية فى اللحظات الأخيرة. أى أن هذا الرجل الذى اعتاد إطلاق التصريحات النارية وتحدى أمريكا بوجه خاص وباقى القوى الدولية بوجه عام، لم يجد فى جعبته فى مواجهة هذه المخاطر، سوى انتظار معجزة ظهور الإمام الغائب!

لغة الدم.. والنار

أعلنت السلطات الإيرانية عن فتح باب التطوع رسميا أمام راغبى تنفيذ عمليات انتحارية (أعمال استشهادية كما يصفونها) وذلك بعد تفجيرات لندن الانتحارية التى أودت بأرواح ما يقرب من ٦٠ فردا من بينهم أطفال ونساء وعجائز وإصابة أكثر من ٧٠٠

فرد، وتفجيرات مدينة شرم الشيخ التى أسالت كثيرا من الدماء وألحقت الخراب بعدد من المنشآت السياحية والتجارية.

والسؤال. هل أدرك المسئولون الإيرانيون دلالة هذا القرار، وما يمكن أن يستنتجه الآخرون من مثل هذا الإعلان الصدمة وفى مثل هذا التوقيت؟

والمدهش أن صاحب القرار هو فتح آية الله محمد تقى مصباح يزدى منظر المتشددين الجدد فى إيران والأب الروحى للرئيس الإيرانى الجديد محمود أحمدى نجاد.

أما الإعلان فقد نشرته صحيفة «برتوسخن ضوء الكلام» التى تصدر فى مدينة «قم».

والقرار ليس الأول من نوعه، والمنهج ليس بالمنهج الجديد. فقد سبق لآية الله الخومينى أن أرسل ملايين المتطوعين الانتحاريين من صغار السن لفتح حقول الألغام العراقية بأجسادهم طوال فترة الحرب التى استمرت ثمانى سنوات (١٩٨٠- ١٩٨٨) وكان كل متطوع يحمل حول عنقه شهادة بدخول الجنة، أى والله أصدر له الإمام الخومينى شهادة بأنه سيدخل بها الجنة.

كما أن إلياس نادران رئيس تكتل المحافظين الجدد. أو بمعنى أصح المتشددون الجدد فى البرلمان الإيرانى والضابط السابق فى مخابرات الحرس الثورى، قد أنشأ تنظيما يحمل اسم «زيتون» لا يضم إلا الانتحاريين المؤهلين لتنفيذ تفجيرات وعمليات انتحارية ضد أعداء الإسلام والثورة الإيرانية. ومن بين هؤلاء الأعداء أمريكا وبريطانيا ودول عربية وإسلامية ترتبط بعلاقات صداقة بالأمريكيين.

ويجرى تدريب هؤلاء الانتحاريين فى ٤ معسكرات تابعة للحرس الثورى وفيلق القدس لإعدادهم وتأهيلهم لما هو قادم من تفجيرات.

وبمثل هذا الأسلوب تعلن إيران موقفها مما جرى من تفجيرات لا بالتأييد فقط بل وبالحرص على استمرار مثل هذه العمليات وتشجيع تنفيذها وإسهامها فى عمليات إعداد الانتحاريين وكأن الأمر فى حاجة إلى مزيد من صب الزيت على الوقود.

إسرائيل.. وإيران

أجرت إيران طوال السنوات الماضية عدة تجارب على أسلحة متطورة فى مقدمتها الصواريخ الباليستية بعيدة المدى من طراز شهاب بأجياله المختلفة وهذا النوع إنتاج إيرانى للصاروخ الكورى الشمالى من طراز نودونج ١ والأجيال التالية منه.

والدولتان اللتان من دول محور الشر وفقا للتصنيف الأمريكى- أقامتا جسرا قويا من التعاون خاصة فى مجالات التكنولوجيا العسكرية.

وقد زادت فى الآونة الأخيرة حدة التهديدات المتبادلة بين إيران وإسرائيل حول برنامج إيران النووى وترافقت التهديدات مع إعلان عن اجراء تجارب على صواريخ «استراتيجية» تقول الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية بأنها أكثر دقة وأبعد مدى من سابقاتها. فى حين كشفت كل من تل أبيب وواشنطن النقاب عن صفقة لتزويد إسرائيل بخمسة آلاف قنبلة ذكية أمريكية الصنع. هذا فى وقت تتصاعد ضغوط واشنطن على حلفائها الأوروبيين لرفع ملف إيران النووى إلى مجلس الأمن وتهديد بعقوبات ضد طهران لوقف عمليات تخصيب اليورانيوم. فهل التهديدات والتحركات المرافقة لها من تجارب وتسلح مجرد «بروباجندا» إعلامية من الطرفين أم أنها نابعة من مصادر قلق استراتيجى حقيقى قد يتطور إلى نزاع عسكرى مدمر؟.

وميزة الصاروخ الباليستيكى، قدرته على اختراق أجواء العدو فى شكل مفاجئ وإمكان تزويده برؤوس حربية غير تقليدية من أسلحة كيماوية أو بيولوجية أو نووية. لكن تطور شبكة الدفاع الجوى الإسرائيلى فى السنوات الأخيرة بواسطة بطاريات صواريخ «باتريوت» المعدل وصواريخ حيتس- ٢ (السهم) وتعزيزها بنظام متطور للإنذار المبكر مكون من شبكة رادارات وأقمار اصطناعية مترابطة جعل الأجواء الإسرائيلية أكثر صعوبة لاختراقها من صواريخ باليستية بدائية التصميم وغير متطورة. وافتقار الصواريخ الباليستية لرؤوس غير تقليدية يفقدها دورها كسلاح استرايجى ويحولها إلى «أسلحة ردع محدودة الفاعلية»، لذا فإن إقدام إيران على إطلاق صواريخ «شهاب» مزود برؤس حربية تقليدية على إسرائيل كرد محتمل على أى هجوم على منشآتها النووية سيكون محدود الفعالية جدا من الناحية العسكرية، إلا أنه قد يكون كافيا من الناحية المعنوية بالنسبة للشارع الإيرانى.

وتسعى غالبية دول المنطقة منذ فترة طويلة لتعزيز قدراتها العسكرية من أجل بناء قوة تردع بها خصومها من تهديدها استراتيجيا فى شكل أساسى. وفى حين آثرت معظم هذه الدول بناء ردع مبنى على قدرات عسكرية تقليدية. عمد البعض وفى طليعتهم إسرائيل إلى تطوير قدرات ردع مبنية على أسلحة غير تقليدية. وإسرائيل كما هو معروف هى الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى تمتلك أسلحة نوية، أما دول أخرى، من بينها إيران.

فإنه يعتقد بأنها تمتلك أسلحة كيماوية وبيولوجية. وامتلاك إيران اليوم لتكنولوجيا ومواد أساسية من أجل دورة وقود نووى كامل يجعلها من وجهة النظر العلمية قادرة خلال السنوات القليلة المقبلة على تخصيب كمية كافية من اليورانيوم للاستخدامات العسكرية. وهذا يعنى أنه من الناحية التقنية فإن إيران تملك القدرة على إنتاج أسلحة نووية ولاتحتاج لفعل ذلك سوى القرار السياسى وبعض الوقت.

وبالرغم من تفوقها العسكرى فى مجالى الأسلحة التقليدية وغير التقليدية. فإن إسرائيل تسخر جزءا كبيرا من قدراتها لتطوير أنظمة دفاعية لمواجهة أعدائها الذين يملكون صواريخ باليستية. وقد طورت لهذه الغاية شبكة الدفاع. كما تخطط منذ فترة لتطوير قدراتها الهجومية لضرب الصواريخ الباليستية قبل انطلاقها أو فى أول مراحل انطلاقها وهى لا تزال فى أجواء الأعداء. أما من الجانب الآخر فتحاول إيران تقليص فعالية الدفاعات الإسرائيلية الحديثة إما عبر اعتماد استراتيجية القصف الصاروخى المكثف على أهداف استراتيجية قليلة مما يصعب عملية الدفاع. أو عبر تطوير صواريخها الباليستية لتحقيق إحدى الغايات الثلاث أو جميعها:

١ - تقليص دائرة الخطأ المحتمل وزيادة الدقة فى الإصابة لتصبح أمتارا قليلة. ويعتقد الخبراء الإسرائيليون أن إيران حققت تقدما على هذا الصعيد.

٢ - جعل الرأس الحربى قادرا على الانفصال عن القاذف وهما فوق الغلاف الجوى للأرض ومن ثم الدخول معا الغلاف الجوى نحو الهدف. الأمر الذى يربك الصواريخ المضادة للصواريخ والتى سيصعب عليها التمييز بين الرأس الحربى وجسم القاذف. ويعتقد بعض الخبراء فى الغرب أن صاروخ «شهاب- ٣» المطور قادر على الانفصال عن القاذف وبالتالى سيربك الدفاعات الإسرائيلية وتجدر الإشارة إلى أن التجربة الإسرائيلية الأمريكية التى أجريت أخيرا فى الولايات المتحدة على فعالية صواريخ حيتس ٢ تضمنت إطلاق صاروخ طراز «سكود دى» والذى ينفصل رأسه الحربى عن القاذف فى الغلاف الجوى وقد فشل صاروخ «حيتس» فى إصابة هدفه. وبحسب أجهزة الاستخبارات الغربية فإن سوريا تصنع وتمتلك صواريخ «سكود دى».

٣ - الحصول على تكنولوجيا الرؤوس المتعددة للصارخ الباليستى أمر صعب المنال ويحتاج إلى إمكانات كبيرة. وآخر دولة امتلكت هذه التكنولوجيا كانت الصين وقد حصلت

عليها قبل سنوات قليلة عبر عميل مزدوج سرقها من مركز للأبحاث فى ولاية نيو مكسيكو الأمريكية، ومن شبه المستحيل لأى شبكة دفاع جوى حالية التصدى لصاروخ متعدد الرؤوس الحربية.

وقد زودت أمريكا إسرائيل بخمسة آلاف قنبلة بعد إعلان إيران تصميمها الاستمرار فى تخصيب اليورانيوم. مما يوحى بأن الخطوة الأمريكية الإسرائيلية كانت على سبيل الإنذار. والكمية كافية لشن حرب صغيرة تستهدف توجيه ضربات سريعة ومكثفة لأهداف استراتيجية أو توجيه ضربة استباقية لتعطيل أو تدمير البرنامج النووى الإيرانى.

وحاجة إسرائيل إلى هذا الكم من القنابل تعود إلى أن إيران وزعت برنامجها النووى على عدد كبير من المنشآت لتفادى تدميره بضربة واحدة كما فعلت إسرائيل عام ١٩٨١ عندما قصفت المفاعل النووى العراقى ولذلك فإنه سيكون على إسرائيل قصف مجموعة أهداف فى إيران خلال بضعة أيام أو أسابيع لشل البرنامج النووى. علما بأن بعض هذه المنشآت يقع فى أماكن سكنية أو تحت الأرض مما سيضطر إسرائيل لاستخدام أسلحة دقيقة لتفادى وقوع خسائر كبيرة بين المدنيين لتجنب غضب الرأى العام الدولى كما حصلت إسرائيل على ٥٠٠ قنبلة مخصصة لتدمير التحصينات حتى عمق يتراوح بين ١٠ و ٢٠ مترا تحت الأرض.

وتمتلك إسرائيل أقوى ترسانة أسلحة تقليدية فى منطقة الشرق الأوسط كما أن تقدمها التكنولوجى يفوق الكثير من دول العالم ومن ضمنها الصين. ومن القنابل والصواريخ الجو أرض الذكية التى يملكها سلاح الجو الإسرائيلى حاليا صواريخ «هارم» و«شرايك» و«مافريك» المطور. إضافة إلى عائلة «بوباى» المحلية الصنع كما أن إسرائيل تملك مقاتلات قاذفة من طراز إف- ١٥، إف- ١٦ تتيح لها تنفيذ عمليات إغارة جوية على أهداف بعيدة المدى دون الحاجة إلى التزود بالوقود.

كما أنها ستحصل على الطراز الأحدث من طراز إف- ٣٥ خلال السنوات المقبلة. وتجدر الإشارة إلى أن إسرائيل تملك غواصات «دولفن» القادرة على الإبحار لمسافات بعيدة فى المياه العميقة وإطلاق صواريخ جوالة مما يمكنها من توجيه ضربات مباغتة لإيران من مياه الخليج أو المحيط الهندى وتملك إسرائيل أيضا صواريخ باليستية من طراز أريحا ١- و ٢ وهما قادران على ضرب أهداف فى إيران أيضا.

ويتوقع الخبراء أن تعتمد إسرائيل على الاستراتيجية نفسها التى استخدمها الأمريكيون فى حروبهم الأخيرة فى كل من العراق ويوغوسلافيا، حيث سيكون الهدف الأول للغارات الجوية الإسرائيلية الرادار ومراكز القيادة والسيطرة لإلغاء نظام الإنذار المبكر للدفاعات الجوية الإيرانية. وقد توجه الضربات الأولى من البحر بواسطة صواريخ جوالة تطلق من غواصات «دولفن» من ثم تقصف الطائرات الإسرائيلية مدارج المطارات العسكرية وما يملكه سلاح الجو الإيرانى من مقاتلات حديثة نسبيا مثل ميج ٢٩ وإف- ١٤ والتى قد تشكل تهديدا محدودا للطائرات الإسرائيلية الحديثة والمزودة صواريخ جو- جو طراز إمرام والقادرة على إسقاط أهدافها من مسافات بعيدة تصل حتى ١٠٠ كم أما بالنسبة إلى الدفاعات الأرضية، فإن إيران تملك صواريخ «هوك» المحسن و«رابيير» وصواريخ أخرى تطلق من على الكتف، إلا أنها جميعها قديمة نسبيا ولاتستطيع صد طائرات مجهزة بأحدث وسائل الحرب الإلكترونية كالتى تملكها إسرائيل.

وفور تحقيق السيطرة الجوية ستكون منصات إطلاق صواريخ شهاب من أول وأهم الأهداف التى ستحاول الطائرات الإسرائيلية تدمير أكبر عدد منها للحد من قدرة إيران على الرد وتهديد الأراضى الإسرائيلية. وستكون مهمة ضرب صواريخ شهاب صعبة جدا لأنها تطلق من على منصات متنقلة.

إلا أن مصاعب وعوائق عدة تحول دون تمكن إسرائيل من توجيه ضربة عسكرية للبرنامج النووى الإيرانى وأهمها بعد المسافة والحاجة إلى إذن من دول عربية «الأردن والعراق أو السعودية» أو إسلامية «تركيا أو باكستان» لعبور أجوائها لقصف أهداف إيرانية وقد تعمد إسرائيل إلى استخدام ممرات جوية فوق المناطق الحدودية بين الدول التى تفصلها عن إيران للوصول إلى أهدافها. إلا أن هذا الأمر سيزيد من طول المسافة ويحد من مجال المناورة لسلاح الجو الإسرائيلى. كما أن إسرائيل ستحتاج إلى قواعد قريبة من إيران لتنطلق منها فرق البحث والإنقاذ تحسبا لسقوط أى من طائراتها ومنعا لوقوع أى من طياريها فى الأسر. ومن المعلوم أن لدى إسرائيل عددا من الطائرات فى قواعد جوية تركية. وهى تسعى منذ سنوات للحصول على موافقة الهند على السماح لطائراتها بالتمركز فى قاعدتين على الأراضى الهندية. كما أن الدولة العبرية تعمل على تصنيع وامتلاك صواريخ جوالة تطلق من غواصات «دولفن» لكن هذه الصواريخ ليست فى الخدمة فى الوقت الراهن وقد رفضت واشنطن طلبات عدة من إسرائيل لتزويدها بصواريخ «توماهوك» الجوالة والتى ذاع صيتها

فى حروب العقد الأخير وتفتقر إسرائيل وأجهزة الاستخبارات الغربية. إلى معلومات دقيقة عن أماكن المنشآت النووية الإيرانية كافة كما برهنت التطورات فى السنتين الأخيرتين. إذ فوجئت هذه الدول باكتشاف منشآت نووية جديدة فى إيران بطريق الصدفة.

ويعتقد الخبراء بأن إسرائيل توشك على أخذ خطوات، عسكرية. للتعامل مع برنامج إيران النووى. وبأن المسألة لم تعد هل ستقدم الدولة العبرية على فعل شىء بل كيف ومتى؟ ويعتبر عدد كبير من المسئولين الإسرائيليين امتلاك النظام الإسلامى الحالى فى إيران لسلاح نووى مصدر خطر كبير يجب التعامل معه بحزم. ويعتقد المفكر الاستراتيجى الإسرائيلى جيرالد ستاينبرج بأن دعم إيران لحركات إسلامية مثل «حماس» و«الجهاد الإسلامى» و«حزب الله» والتى تشن هجمات على إسرائيل على أكثر من جبهة إضافة إلى تصريحات المسئولين الإيرانيين الداعية لمحو إسرائيل من الوجود، براهين على عدائية طهران ونياتها تجاه إسرائيل لذلك فهو يعتقد أن القيادة الإسرائيلية لن تسمح لدولة تملك نيات سيئة وعدوانية تجاه إسرائيل بأن تمتلك قدرات نووية.

وخيارات القيادة الإسرائيلية للتعامل مع إيران حسب ستاينبرج أربعة:

١ - عدم فعل شئ فى انتظار حدوث تغييرات داخلية تخرج المحافظين من السلطة فى طهران وبالتالى لا يعود النظام معاديا لإسرائيل وهذا الخيار لم يعد مقنعا للكثيرين فى إسرائيل والغرب بعد العودة القوية للتيار المحافظ وسيطرته بشكل تام على مراكز صنع القرار فى إيران.

٢ - انتظار إقدام الولايات المتحدة وبالتعاون مع حلف شمال الأطلسى على شن حملة عسكرية لتدمير البرنامج النووى الإيرانى وإضعاف النظام فى طهران.

٣ - تأخذ إسرائيل المبادرة بشكل فردى وتشن ضربات استباقية لمواجهة الخطر النووى الإيرانى.

٤ - القبول بالأمر الواقع والتعايش مع إيران على أنها دولة نووية وهذا الخيار. حسب ستاينبرج. يتطلب من الدولة الإسلامية فى إيران فتح قنوات رسمية ودبلوماسية مباشرة مع إسرائيل من أجل بناء الثقة ولتفادى وقوع أخطاء تؤدى إلى حرب نووية.

ويخلص ستاينبرج إلى أن إسرائيل قد تقدم خلال السنوات المقبلة على شن حرب وقائية ضد إيران إذا لم تبادر أمريكا بنفسها بتدمير البرنامج النووى الإيرانى أو لم تؤد العقوبات الدولية إلى دفع إيران للتراجع عن الاستمرار فى تخصيب اليورانيوم ويضيف أن القيادة

العسكرية الإسرائيلية تعتقد أن إيران تزداد قوة مع الوقت ولذلك فإن التعامل معها سيكون أسهل من الانتظار إلى وقت لاحق، ويعتبر أن «الذهنية الاستراتيجية» فى إسرائيل ترتكز على الاتكال على الذات وعدم الأخذ بالتعهدات الخارجية عندما يعود الأمر لأمنها أو بقائها. ويجمع المراقبون على أن مسألة فرض عقوبات اقتصادية على إيران معقدة جدا وتواجه معارضة شديدة من أطراف عدة نظرا إلى تأثير هذه العقوبات فى أسواق النفط التى تشهد ارتفاعا كبيرا فى الأسعار.

ونظرا للتفوق الجوى الإسرائيلى الكبير وقوة دفاعاتها الجوية من جهة وعدم امتلاك سلاح الجو الإيرانى مقاتلات قاذفة حديثة ومتطورة من جهة أخرى فإن وسيلة الرد العسكرى المباشر لطهران ستكون بواسطة صواريخ شهاب وسيكون أمام طهران الاختيار بين تزويد هذه الصواريخ برءوس تقليدية لشن حرب ترهيب واستنزاف ضد إسرائيل وحتى لو كانت إيران على سبيل الافتراض تمتلك أسلحة نووية واستخدمتها بقصف مباغت ضد إسرائيل فإن الرد النووى سيأتى من جانب الولايات المتحدة وذلك بحسب المراجعة الأخيرة لـ «السياسة النووية» للإدارة الأمريكية التى نشرت عام ٢٠٠٢. وتحدد هذه السياسة متى وكيف تستخدم الترسانة النووية الأمريكية. وفى هذا السياق تنص الوثيقة على أنه فى حال تعرض إسرائيل إلى أى هجوم نووى من أى دولة فى الشرق الأوسط فإن الولايات المتحدة ستستخدم قوتها النووية لضرب هذه الدولة.

ويرجح بعض الخبراء أن يأتى الرد الإيرانى بطرق غير مباشرة إما عبر «حزب الله» فى جنوب لبنان، أو عبر استهداف مواقع أمريكية فى منطقة الخليج بقصف صاروخى أو بعمليات ينفذها عملاء لأجهزة الاستخبارات الإيرانية، وقد تعمد إيران أيضا لسد منافذ الخليج وتعود لحرب ناقلات النفط انتقاما من الولايات المتحدة التى ستعتبرها طهران شريكا لإسرائيل فى الهجوم على أراضيها. إلا أن سيناريوهات الرد غير المباشر لن تكون كافيه لطهران بحسب اعتقاد بعض الخبراء الإيرانيين ويقول صادق زيب الكلام، أستاذ العلاقات الدولية فى جامعة طهران وأحد مستشارى الرئيس السابق رئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام، هاشمى رفسنجانى بأن الحكومة الإيرانية ستجد نفسها ملزمة بالرد المباشر على إسرائيل للمحافظة على معنويات قواتها وشعبها. ولن تكتفى برد عبر وسطاء مثل «حزب الله» وقد تعمد أيضا للرد المباشر وغير المباشر فى آن.

صحيح أن إسرائيل متفوقة تكنولوجيا وعسكريا على إيران، إلا أن الأخيرة أكبر حجما وتملك مقومات طبيعية وشعبية تمكنها من الصمود فترة أطول بكثير من إسرائيل فى حرب استنزاف طويلة. ولذلك يعتقد زيب الكلام بأن إسرائيل قد تستطيع بدء الحرب لكنها لا تستطيع ضمان فترتها وكيفية نهايتها. ويتوقع الخبراء أن تعتمد إسرائيل على تدخل فورى وسريع من المجتمع الدولى والعالم العربى لوقف النزاع العسكرى بأسرع وقت، مع الأمل بأن يكون الهجوم الإسرائيلى قد أحدث صدمة فى المنطقة كافية لدفع الدول العربية للعودة إلى تلبية الشروط الإسرائيلية لإنهاء النزاع فى الشرق الأوسط.

وأكثر ما تخشاه القيادة العسكرية فى إسرائيل هو ألا يكون عامل الوقت فى صالحها وألا تكون تقديرات أجهزة استخباراتها حول وضع البرنامج النووى الإيرانى صحيحة لأن هذا يقود إلى سؤال أساسى: ماذا ستفعل إسرائيل إذا تمكنت طهران من امتلاك السلاح النووى فى وقت أقرب من المتوقع، وهل ستغامر بحرب استباقية نووية؟[1]

غالبية الخبراء لا يتوقعون أن تستخدم إسرائيل سلاحها النووى سوى فى الحالات الصعبة عندما تكون على شفا الانهيار والهزيمة المطلقة. والتساؤل يدور أيضا حول ماذا يجب على إيران أن تفعله عند امتلاكها السلاح النووى هل تخبر إسرائيل والولايات المتحدة بالأمر عبر وسائل دبلوماسية أم تقوم بإجراء تجارب تحت الأرض. على غرار ما قامت به كل من الهند وباكستان، لإحداث صدمة لدى الأطراف الأخرى من أجل تعزيز عامل الردع؟ الوقت وحده كفيل بالاجابة عن هذه التساؤلات. لكن من المؤكد أن إسرائيل ستعدل عقيدتها العسكرية وتعلن امتلاكها ترسانة نووية وتزيد من سرعة رد فعلها باللجوء إلى هذه الترسانة فى حال شعرت بأى حركة عسكرية عدائية من جانب إيران.

إن تأزم الوضع الإقليمى مع انتشار الصواريخ الباليستية وأسلحة الدمار الشامل دفع دول مجلس التعاون الخليجى للتفكير بإنشاء شبكة للدفاع الجوى ضد الصواريخ الباليستية.

ويعتقد المراقبون بأن نظام صواريخ باتريوت الأمريكى هو الأوفر حظا فى الحصول على موافقة دول المجلس ليشكل شبكة الدفاع المنشودة، ومرد ذلك أنه الطراز الوحيد الذى جرى اختباره فى حرب فعليه وكونه موجودا حاليا فى الخدمة لدى كل من الكويت والمملكة العربية السعودية. وبحسب مصادر موثوقة فى البنتاجون فإن القيادة العسكرية فى كل من السعودية والكويت وقعت أخيرا على اتفاقات لتحديث «باتريوت» لديها إلى

(١) المرجع السابق.

مستوى «باتريوت» المعدل والمعروف باسم PAC-3 لكن التحدى الكبير سيكون فى كيفية نشر شبكة الصواريخ هذه إذ أن الخبراء والمحللين يعتقدون بأن إسرائيل ستعارض بشدة نشر أى بطاريات باتريوت على الجبهة الغربية للملكة العربية السعودية لأن هذا سيحد من حركة طائراتها كما سيحد من تهديدها لمنطقة الخليج بأسرها لذلك فإن الاعتقاد السائد بين أوساط المسئولين والمحللين المطلعين على الأمر هو أن القيادة العسكرية قد تقوم بنشر هذه الشبكة فى المرحلة الأولى لحماية الجبهات الشرقية والشمالية والجنوبية لمنطقة الخليج من الصواريخ الباليستية على أن تمتد فى وقت لاحق لتغطى أجزاء من الجبهة الغربية.

درع الأطلنطى الصاروخية

أقرت قمة حلف الأطلنطى فى ختام اجتماعاتها بالعاصمة البرتغالية لشبونة يوم ٢٠ نوفمبر ٢٠١٠ استراتيجية نشر درع صاروخية فى كل دول الحلف بالإضافة إلى روسيا.

والاستراتيجية التى أقرها الحلف تأتى استجابة لاقتراح أمريكى تمت مناقشته على مستويات مختلفة قبل إقراره. وبما يعد نجاحا للأمريكيين وللرئيس أوباما وإدارته. وبهذا الإقرار يتبنى الحلف مبدأ الحرب الوقائية أو الاستباقية ويعتبر القرار الجديد أهم ملامح المراجعة الثالثة لسياسات الحلف واستراتيجياته. وخلال الأسابيع التى سبقت عقد هذا الاجتماع. عاشت العاصمة التركية أنقرة حالة من الحيرة. فقد أعلن مسئولون موافقتهم على نشر الدرع فى حين اعترض آخرون حرصا على علاقاتهم مع إيران.

وخلال الاجتماع، طلب الوفد التركى عدم الإشارة إلى إيران فى القرار حتى يمكنهم الموافقة عليه. وقد استجابت القمة للمطلب التركى الشكلى، فالمهم أن تركيا لم تخرج من دائرة الحلف. بل أكدت حرصها على أن تكون عضوا فاعلا حتى ولو أدى ذلك إلى انهيار علاقاتها بإيران. وبصورة أخرى حتى ولو رأت طهران أن أنقرة قد باعتها. والقضية هنا قضية مصالح. ولم يكن ممكنا أن تتخلى تركيا عن مصالحها المرتبطة بالبقاء داخل حلف الأطلنطى وداخل منظومة دول الاتحاد الأوروبى التى تتطلع بقوة لنيل بطاقة عضويته.

وقبل حوالى أسبوعين من اجتماع قمة حلف الأطلنطى. انتقد الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد روسيا لامتناعها عن تسليم بلاده صواريخ إس- ٣٠٠، وقال «لقد باعونا إلى أعدائنا» وكأنه لا يعلم أن المصالح هى لغة السياسة. فروسيا لم تبع إيران لأحد. ولكنها كانت قد انتهت من إعداد كل الترتيبات للعودة إلى اجتماعات حلف الأطلنطى. وكانت

قد وافقت على أن تكون داخل شبكة الدرع الصاروخية الجديدة. وأن يجرى نشر الدرع على أراضيها. ومن المعروف أن روسيا سبق أن اعترضت بشدة على نشر شبكة الدرع فى تشيكيا ودول أخرى سبق أن كانت أعضاء بحلف وارسو. وقد اقتضت لغة المصالح أن تغير روسيا موقفها بمثل هذه الصورة.

وإذا كانت تركيا قد طالبت بعدم الإشارة إلى اسم إيران فى القرار. فإن الرئيس الفرنسى نيكولا ساركوزى قال بصراحة «لم تأت الوثائق العامة للحلف على ذكر أى اسم لكننا نسمى الأمور بأسمائها.. وخطر الصواريخ اليوم متمثل بإيران».

أى أن الدول أعضاء الحلف وعددها ٢٨ دولة بالإضافة إلى كل من الولايات المتحدة وكندا وروسيا. أجمعت على أن الصواريخ الإيرانية خطر يتهددها. لذا تبنت هذه الاستراتيجية والتى تعد فى نفس الوقت إصرارا على الاستمرار فى الحرب ضد الإرهاب.

وربما أدرك المسئولون الإيرانيون. أو نسبة منهم. حقيقة أبعاد هذا القرار. وأن إيران هى الخاسر الأكبر. فإن هناك المزيد من الضغوط والعزلة والحصار فى الطريق. ومع ذلك فقد أكد الرئيس الإيرانى فى يوم ٢٤ نوفمبر. أن بلاده لا تخشى الدرع الصاروخية التى ينوى حلف الأطلنطى نشرها فى أوروبا. واستطرد قائلا «لن يستطيع هؤلاء التغلب على الدرع الإلهى الحصين بصواريخهم المهترئة».

تجتمع قمة حلف الأطلنطى. وتناقش استراتيجية جديدة. وتنتهى من بلورتها فى إطار مراجعة ثالثة لدور الحلف وسياساته خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وانفراط حلف وارسو. وبعد عمليات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الإرهابية التى ضربت أهدافا أمريكية. وتقوم بعملية تقييم تاريخية لدور الحلف فى عالم تغير بشكل جذرى عن العالم الذى شهد ميلاد الحلف. وكل ما يقوله الرئيس الإيرانى تعليقا على ذلك. إنه لا يخشى الحلف. وأن الصواريخ المتهرئة للدرع الصاروخية الجديدة لن تتغلب على درعه الإلهى.!!

❑❑❑